الدراسات والأبحاث | Research Papers

نظرية التقاطع المعرفي في علم الاجتماع، زيغمونت باومان أنموذجًا.

Interdisciplinarity Theory, Zigmont Baumann as a model.

فاروق بن خرف الله[1]. | Farouk Benkherfallah
محمد غازي[2]. | Mohamed Ghazi

(١) باحث في سلك الدكتوراه، تخصص فلسفة العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي بونعامة -خميس مليانة-ولاية عين الدفلى، (الجزائر). البريد الإلكتروني: f.benkherfallah@univ-dbkm.dz

(٢) أستاذ محاضر بالمدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر. البريد الإلكتروني: ghazim406@gmail.com.

ملخص البحث

شكلت نظرية التقاطع المعرفي في الآونة الأخيرة رواجًا كبيرًا لدى العلماء والإبستيمولوجيين؛ وذلك لأن هذه النظرية تستطيع أن تدفع بالمعرفة والعلم إلى التطور أكثر كما تعمل على تنسيق الجهود فيما بين التخصصات لإيجاد حلول عملية لمشاكل متعددة، بحيث دعوا منذ البداية إلى مثل هذا التفكير في إطار الشمولية والموسوعية، ومن بين هؤلاء الذين نجد فيهم هذا النوع من التفكير، وهذا النمط الموسوعي الموسوم بالتقاطع المعرفي هو المفكر البولندي زيغمونت باومان، الذي نجده مطلعًا على العديد من العلوم الأمر الذي مكنه فيما بعد من وضع نظريات جديدة في علم الاجتماع، وعليه سنحاول في هذا المقال إظهار التقاطع المعرفي كنظرية مستجدة مطلوبة في فكر وفلسفة البولندي زيغمونت باومان.

الكلمات المفتاحية: التقاطع المعرفي، زيغمونت باومان، علم الاقتصاد، علم الاجتماع.

Abstract

The theory interdisciplinarity has recently formed a great popularity in the circles of thought and knowledge, and this theory has recently become witnessed by many thinkers, because this theory can push knowledge and science to develop more and works to coordinate efforts between disciplines to find practical solutions to multiple problems, and these The theory was able, by its nature, to find great popularity among thinkers and philosophers, but it is they who, from the beginning, called for such thinking under the

tutelage of inclusiveness and encyclopedia, and among those who have this kind of thinking and this encyclopedic pattern marked by the epistemic intersection is the thinker The Polish Zygmunt Bauman, who found familiar with many of the sciences, which enabled him later to develop new theories in sociology, and we will try it in this article show the intersection of cognitive theory emerging is required in the thought and philosophy of the Polish Zygmunt Bauman.

Key words: interdisciplinarity, Zygmunt Bauman, economics, sociology.

مقدمة

شهد تاريخ الفكر البشري منذ بداياته الأولى إلى الوقت الراهن العديد من المحطات الفكرية التي تشهد للإنسان بوجود قفزات فكرية مهمة للبشرية جمعاء، فقد ظهرت مختلف النظريات العلمية في ميادين متنوعة، وظهرت الأشعار والنظريات الأدبية أيضًا، وكذلك برزت مختلف النظريات الفلسفية، وهكذا سارت البشرية نحو الأمام متخطية مختلف العقبات التي واجهتها محاولة إيجاد الحل، وفي وقتنا الحاضر ومنذ مدة لا تتجاوز الخمسين سنة بدأ العقل البشري يفكر في نظرية جديدة تساهم دوما في إيجاد الحل لمشكلات الإنسان خاصة الفكرية منها فقد شرع الإنسان في إعادة التفكير من جديد في الدعوة إلى زيادة التخصصات والإكثار منها إلى الدعوة إلى تنسيق الجهود فيما بينها، هذا ما سمح بظهور ما يسمى بالتقاطعات فيما بين التخصصات والدراسات البينية التي تجمع بين العديد من الميادين والمجالات، فقد توصل الإنسان إلى ضرورة مشاركة الجميع في مواجهة عقباته التي تواجهه

وتمنع عنه مواصلة المسيرة نحو التقدم، وهكذا نتج عن هذا الجو نظريات جديدة في ظل التنسيق والتعاون فيما بين التخصصات وعلى رأسها ما يعرف بنظرية التقاطع المعرفي التي نالت حظا وافرا من الاهتمام عند كل الطبقات العلمية والمعرفية عموما، وذلك باعتبار أهمية هذه النظرية في حياة الإنسان المعرفية وحياته اليومية أيضا، هذه النظرية التي يرجعها البعض إلى الحركة الطلابية التي شهدتها جامعة كيبيك في أواخر القرن الماضي والتي تطورت فيما بعد لتنال مفهوما واسعا وانشغالا كبيرا، هذا الاهتمام الذي يكون في مقدمته المفكرون والفلاسفة وعلماء الاجتماع وغيرهم، لأنهم أولى بمثل هذه المعارف، هذا الذي يدفعنا للحديث عن النظرية مع أحد المفكرين وعلماء الاجتماع البولندي زيغمونت باومان الذي أكد على أن المجتمع الحالي لا يفهم من وجهة واحدة ضيقة بل لابد من اتحاد فيما بين التخصصات، وعليه سنحاول أن نبين التقاطع المعرفي لدى زيغمونت باومان، فما هو التقاطع المعرفي أولا؟ وكيف تم تجسيده عند باومان باعتباره عالم اجتماع؟

١/- مفهوم التقاطع المعرفي: l'interdisciplinarité

قبل تحديد المفهوم الخاص بالتقاطع المعرفي، لابدّ من الإشارة إلى أن كلمة interdisciplinarity بالإنجليزية، وبالفرنسية interdisciplinarité ليس لها ضبط دقيق ومقابل في اللغة العربية؛ إذ ورد بعدة مفاهيم في اللغة العربية، فهناك من يستعمل لفظة "الدراسات البينيّة"، وهناك من يستعمل "ما بين التخصّصات" كما نجد "التّخصّصات البينيّة"، وهناك دراسات أخرى حبّذت مصطلح "التقاطع المعرفي" فهناك على سبيل المثال دراسة

مقارنة في الأدب بعنوان "التقاطع المعرفي بين ميخائيل نعيمة وكمال جنبلاط" للدكتور رياض سليم، فقد كانت الدراسة مليئة بالتنوع المعرفي والتعدد الفكري وإظهار نقاط التقاطع بين الشخصيتين، كما نجد مقالًا بعنوان "التقاطع المعرفي في اللسانيات العربية قراءة إبستيمولوجية"، وعليه نجد أن تكون لفظتي التقاطع المعرفي هي الأنسب وذلك لما يحمله مصطلح (inter) في اللغة الفرنسية من معانٍ وأهمها التقاطع، وكذلك كلمة (disciplinarité) التي من أهم معانيها التخصص، وبالتالي فنحن أمام كلمتي التقاطع ما بين التخصصات، ولما كان الغرض الأسمى للتقاطع يكمن في المعرفة، كانت لفظتي التقاطع المعرفي اختصارًا لما سبق، وسنبين هذا الأمر بصورة مختصرة في هذا العنصر الموالي.

٠١/- التعريف اللغوي للمصطلح:

أ/- بالنسبة لكلمة :(inter)

- في اللغة الفرنسية:

- لغة:

ورد في معجم لاروس (Larousse) أنه من الكلمة اللاتينية (inter) وتعني داخل، تعبر عن التبادل أو عن العمل المتبادل مثل قولنا :(interdépendant) أي أنه مترابط، (interclasse) أي ما بين الصف. (inter) اسم مذكر، وهو اختصار لكلمة (intérieur) داخل، في كرة القدم وكذلك اختصار لكلمة (interurbain) أي داخل العمران[٣].

وفي معجم ريفيرسو(Reverso) ورد بمعني: فيما بينها[٤]. وفي معجم غلوسب (glosbe) نجده بمعنى بين، داخل، وسط، في بَطْنِ[٥]. كما يعني أيضا الوضعية المشتركة بين مسافتين اثنتين[٦].

ب/- بالنسبة لكلمة (discipline):

-لغة:

Discipline اسم مؤنث يعني الطاعة والنّظام الصارم، وهناك أيضًا les disciplines scientifiques أي المجالات العلمية، وهناك discipline بمرادف فرنسي matière يعني المادة أو المجال وهناك صفة discipliné أي المنضبط[٧]. وفي معجم لاروس (larousse) الإلكتروني وردت لفظة Discipline اسمًا مؤنثًا يعني النظام وجمعه أنظمة، كما نجده بمعنى (matière) أي مادة تعليمية وجمعه مواد تعليمية[٨] .

(3) LAROUSSE, **LAROUSSE inter, https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/inter-/43593, 18/03/2021, h :14 :49.**

(4) Reverso, https://context.reverso.net/traduction/francais-arabe/inter, **17/03/2021, h :20 :49.**

(5) Glosbe , inter en arabe,https://fr.glosbe.com/fr/ar/inter, 17/03/2021, h :15 :23.

(6) sensagent , http://dictionnaire-analogique.sensagent.com/MA80816/ML-fr-ar/, 19/03/2021, h :10 :30.

(7) reverso , opcite. https://dictionnaire.reverso.net/francais-definition/disciplinarit%C3%A9.

(8) larousse, opcite, https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais-arabe/discipline/11999.

له مرادفات عدة حسبما ورد في القاموس الإلكتروني غلوسب الفرنسي (glosbe) وهي كالتالي: الانضباط، تهذيب، مَوْضُوع، الطاعة، دَوْرَة، فَرْع، نِظام، التأدب، تخصص أكاديمي، فرع (من فروع المعرفة)، فَرْع مِن المَعْرِفَة، مَوْضُوع البحْث vvvfvfvfvf[٩].

وعليه يمكن القول مما سبق أن كلمة (inter) تتضمن التقاطع باعتبار أنها تعبر عما هو بين شيئين أو عما هو موجود فيما بين أمرين اثنين، أو، أما بالنسبة لكلمة (discipline) فهي تتضمن أيضًا التخصص أو المجال العلمي وإذا جمعنا الكلمتين مع بعض استطعنا القول ما بين التخصص، ولما كان الهدف هو المعرفة قيل عنه أنه تقاطع معرفي بين التخصصات.

في اللغة العربية: بالنسبة لكلمة (تقاطع)

-لغة:

تَقَاطَعَ الشَّيْءُ: بَانَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْطَعَهُ إِيَّاهُ: أَذِنَ لَهُ فِي قَطْعِهِ. وَقَطَعَاتُ الشَّجرِ: أُبَنُّهَا التي تخرجُ منها إِذَا قُطِعتْ، الواحِدةُ قَطَعَةٌ[١٠].

وفي مختار الصحاح ورد أنه من الفعل (قطع) قطع الشيء يَقطعه قطعا. وقطع النهر: عبره، ولبنٌ قاطِع أي حامض، والأقطع المقطوع اليد والجمعُ قُطعان مثل: أسود وسودانٍ و(القِطْعُ) ظلمة آخر الليل، ومنه قوله تعالى (فأسر بأهلك بقِطعٍ من اللّيل) وقال الأخفش: بسوادٍ من الليل، و(القِطْعَةُ) من الشيء الطّائفة منه، و(المِقْطعُ) بالكسر ما يُقطعُ به الشيء[١١].

المعرفة: (لغة):

معرفة [مفرد]:ج معارف (لغير المصدر): ١/- مصدر ميمي من عرف/عرف بـ. معرفة مباشرة: معرفة تنتفي فيها الواسطة بين الذات العارفة والموضوع المعروف. ٢/- إدراك الشيء على ما هو عليه، هو أكثر منك معرفة لهذا الموضوع-المعرفة قوّة- حدث هذا بمعرفته: بعلمه، واطلاعه يُقال النشاط بغير معرفة حمق. يعرفه حق المعرفة: يعرفه جيّدًا.

المعرفة: وردت بمعنى حصيلة التعلّم عبر العصور. وهي ضدّ النكرة، كما أنها تعني الاسم الدال على مُعيّن مثل: الكتاب، قلم الحبر. ويقال معرفي (مفرد): اسم منسوب إلى معرفة[١٢].

وعند الجرجاني نجد المعرفة: ما وضع ليدلّ على شيء بعينه، وهي المضمرات والأعلام

(9) Glosbe, opcite, https://fr.glosbe.com/fr/ar/discipline.

(١٠) ابن منظور، لسان العرب، مادة تقاطع، القاهرة، دار صادر للطباعة والنشر، ط١، الجزء٧، ص ٣٦٧٥.

(١١) أبو بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح. مادة قطع، دار الإحياء، ١٩٩٨، ص٢٢٧.

(١٢) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، المصدر السابق، ص ص١٤٨٧.

والمُبهمات وما عُرِّف باللام والمضاف إلى أحدهما، والمعرفة أيضًا إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يُسمّى الحقّ تعالى بالعالم دون العارف[١٣] .

٠٢/- مفهوم التقاطع المعرفي (اصطلاحًا):

التقاطع المعرفي لا يظهر إلا عندما تبدأ وجهات النظر المتعلقة بالتخصصات بالتكامل والاندماج؛ فالكل في الحقيقة ليس مجرد إضافات بسيطة للأجزاء، ولكن السعي إلى دمجها في تركيب أعلى، فهو نتيجة لعمل إعادة بناء الواقع[١٤].

كما يعرف أيضًا على أنه عملية صياغة للمعرفة، التي تؤدي -من خلال المناهج المتتالية كما في الحوار- إلى إعادة تنظيم جزئي للميادين والمجالات النّظرية[١٥].

ويذكر كل من جوليفيي[١٦]* وجون ماري ليقاي[١٧]*(Marcel Jollivet, Jean Marie Legay) -الأول، في مقال لهما أن مفهوم التقاطع المعرفي يستخدم في العديد من المعاني، وبالنسبة لهما: (هو عملية بحثية يتم إنشاؤها بطريقة منهجية من خلال تجميع المعرفة وجهات النظر، وتقنيات العمل من مختلف التخصصات العلمية)[١٨] .

ومن هذه التعريفات كلها يمكن إذن الوصول إلى تعريف جامع يشرح بطريقة معينة المفهوم ويختصره، وهذا ما نجده عند باتريك شورودو (patrick chaurodeau) الذي يعتبره: عملية تتضمن تقاطعًا في التصورات والمفاهيم التي لها علاقة بإعارة وسائل التحليل والتفسير من التخصصات الأخرى، وليس مجرد عملية مجاورة للمناهج بعضها بعضًا، ولكن عملية ارتباط كاملة وتامة بين العديد من التخصصات[١٩].

ومن هنا يتضح إذن حجم الاهتمام بالتقاطع المعرفي، وكيفية النظر إليه؛ فالقضية ليست مجرد إضافات بسيطة وفقط، بقدر ما هي متعلقة ومرتبطة بإيجاد طرق جديدة لفهم الواقع وكيفية التعامل معه؛ فالتقاطع المعرفي لم يأت ليسد فراغات بسيطة في حياة الإنسان بل هو ضرورة ألح عليها الواقع الإنساني نظرًا لتعقد حياته وتشابكها، وقد كان هذا ما يعني التقاطع المعرفي والبحث في

(١٣) الجرجاني، التعريفات، المصدر السابق، ص ١٨٥.

(14) voir Bertrand calenger, à la recherche de l'interdisciplinarité, de quelques collections, vol 4, 2002, p5-13..

(15) Voir BéchillonD,la notion de transdisciplinarité, revue de mouvement anti- utilitariste dans les sciences sociales, vol 10, **Bibliothèque du MAUSS numérique,** 1997, p5-319.

(١٦)* سوسيولوجي بجامعة باريس.

(١٧)* بيوفياسي بجامعة كلود بيرنارد بليون lyon.

(18) voir Marcel jollivet, Jean Marie Legay :(nature sciences sociétés :from dossier interdisciplinarité canevas pour une réflixion sur une interdisciplinarité entre sciences de la nature et sciences sociales),2005, p184.

(19) Voir Béatrice fleury et jacques walter, interdisciplinarité, interdisciplinarités, question de communication, vol 18, 2010, open édition journal presse universitaire de lorraine, p145-158.

ضبط مفهومه، سننتقل إلى باومان باعتباره شخصًا فكريًا لمعرفته بصورة موجزة.

٠٣/- من هو باومان؟

ولد في ١٩ نوفمبر ١٩٢٥، بوزنان، بولندا، وتوفي في ٩ يناير ٢٠١٧، ليدز، إنجلترا، عالم اجتماع بولندي المولد كان أحد أكثر المثقفين تأثيرًا في أوروبا، والمعروف بالأعمال التي تفحص التغيرات الواسعة في طبيعة المجتمع المعاصر وتأثيراتها على المجتمعات والأفراد. ركز في المقام الأول على كيفية تأثر الفقراء والمحرومين بالتغيرات الاجتماعية[٢٠]، وهو مواطن من بوزنان، في غرب وسط بولندا، كان أولًا ضحية للنازيين، ثم الشيوعيين وهو نجل موريتز بومان، المحاسب، وزوجته صوفيا (ني كوهن)، فر مع عائلته عند اندلاع الحرب العالمية الثانية إلى الاتحاد السوفيتي، وحصل على الصليب العسكري البولندي من فالور للقتال ضد النازيين[٢١].

له عدة مؤلفات منها الحداثة والمحرقة (١٩٨٩)، والحداثة السائلة (٢٠٠٠)، وشملت منشوراته البارزة الأخرى الثقافة مثل براكسيس (١٩٧٣)، الحداثة والتضارب (١٩٩١)، ما بعد الحداثة وسخطها (١٩٩٧)، العولمة: العواقب البشرية (١٩٩٨)، المجتمع الفردي (٢٠٠١)، حياة مهدرة: الحداثة ونبذها (٢٠٠٣)، والغرباء عند بابنا (٢٠١٦). روتروبيا زيغمونت باومان (٢٠١٩)، أطفال المجتمع السائل، (٢٠١٨)، الحب السائل، اشتري حياة.(٢٠٠٨) [٢٢].

بعد التعريف بشخص باومان، ننتقل إلى التقاطع المعرفي في علم الاجتماع بصورة عامة، حتى يتسنى لنا معرفة أن هناك دراسات في هذا المجال دعت إلى ضرورة تدخل العلوم الأخرى في ميدان علم الاجتماع، ثم ننتقل فيما بعد إلى بيان التقاطع المعرفي عند زيغمونت باومان.

٠٤/- التقاطع المعرفي في علم الاجتماع:

تعتبر الدراسات التي تنتمي لهذا الحقل المعرفي من بين أهم المحاور التي تشتغل بها النخبة الأكاديمية عبر مختلف أنحاء العالم، فقد شكلت الدراسات البينية نقطة تقاطع وتلاقح بين العديد من الأكاديميين، ممّا مكّنهم من وضع جسور وممرات الالتقاء فيما بينهم؛ فالنّخب العلمية الآن تولي أهمية بالغة لمثل هذا النوع من الدراسات، وذلك لما لها من أثر إيجابي على الفاعلين في التخصصات، فهو يُخرجنا من تخصّصنا لنبحث عن عناصر أخرى للإشكاليات، للتفاسير، ويتعلق الأمر بفتح

(20) .britannica, Zygmunt Bauman POLISH-BORN SOCIOLOGIST, Patricia Bauer, la date :25/04/2020, H :02 :00, https://www.britannica.com/biography/Zygmunt-Bauman.

(21) Theguardian, Zygmunt Bauman obituary, Mark Davis and Tom Campbell, la date: 25/04/2020, H: 18 :18, **https://www.theguardian.com/education/2017/jan/15/zygmunt-bauman-obituary.**

(22) franceculture.fr, Biographie de ZygmuntBauman, franceculture, la date: 25/04/2020, H: 18 :30, https://www.franceculture.fr/personne-zygmunt-bauman.html.

وجهات البحث، وإثراء الوسائل المتعلقة بها وشحذ التّفكير النّقدي، ومُلاحظة الظاهرة من زوايا مختلفة؛ لأن وسائلنا النظرية والمنهجية تبدو مقيدة بتفكيرنا، وهذا ما يحدث كثيرًا من حيث النظريات؛ فمثلًا الجغرافيا تصبح اجتماعًا، الاقتصاد يصبح معرفة، علم النفس يصبح علم الاجتماع، بالإضافة إلى ذلك فإنه يستجيب للضرورات المرتبطة بالتغيّرات في المجتمع، وكذلك بمساحة البحث المخصّصة لذلك، وعليه فإن وظيفة الباحث هنا تتغير؛ إذ يتم استدعاؤه لُيقدّم رأيه حول قضية مُعقّدة، وأحيانًا أخرى لوضع معرفته في تخصصه في علاقة مع المعارف الأخرى، وأن يكون باحثًا خبيرًا، قادرًا على فهم كل شيء وإشراك كلّ شيء، وحلّ كلّ شيء.

يُعدّ التقاطع المعرفي جزءًا مهمًا لا يتجزأ من دستور أي تخصص، ولا سيما في العلوم الاجتماعية، فهو يُقدّم نفسه على أنه إعداد تأويلي للمفاهيم المستوردة التي تتحول فيما بعد إلى مفاهيم محلية لمجرد استيعابها[٢٣]؛ فهو جهد للتغلّب على الاتجاه نحو التقسيم والتشتت في التخصصات[٢٤]، فلا فرصة اليوم أمام التوغل والاستغراق في تخصص واحد دون النظر لما يجري حول تخصصنا؛ بل لا بدّ من السعي الحثيث حول مخاطبة التخصصات بعضها لبعض، فهذا هو النهج المعرفي الجديد، إنه نهج يمكّننا من إثراء القضايا وتوسيع الآفاق وفهم المستعصيات.

وبإمكانه أن يحمل نظرة متقاطعة على الإنسان، العلم، الحوارات، الانتقادات، والتي بدورها تتطلب نظرات متقاطعة فيما بينها وتعددًا في التخصصات؛ ذلك لأن تخصصًا واحدًا لا يمكنه أن يكون على صواب وحده دون أن يعرف وضعيات وأعمال التّخصصات الأخرى، ولا يمكن له أن يطور الفكر النظري في مقاربة شجاعة.[٢٥] وبالتالي لا بد من المشاركة والتعاون قصد تطوير الفكر النظري لكل تخصص، أما البقاء في صومعة التخصص الانعزالي فإنه لا يجدي نفعًا.

إن العصر الحالي الذي يعيشه الإنسان هو عصر التغيرات على مختلف الأصعدة (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الفكرية، التقنية...إلخ) بحيث وضعت هذه التّغيّرات المهتمين بعلم الاجتماع على ضرورة إيجاد سبل بحث جديدة وكفيلة بامتلاك مخيلة سوسيولوجية تساهم في تقديم الحل، ولتحقيق ذلك انتبه الناشطون في ميدان علم الاجتماع إلى أنّ الأسلوب التقليدي أمر غير مُجدٍ؛ لأنه أسلوب قائم على المحاضرات النظرية والتلقين واجترار المعلومات، دون الاهتمام بالعمل الجماعي والتفكير الإبداعي وتطبيق

(23) Voir Jean-Paul Resweaber, les enjeux de l'interdisciplinarité, quistion de communication , press universitaire de lorraine, 2011, p171-200.

(24) Voir Yves Lenoir, L'interdisciplinarité : aperçu historique de la genèse d'un concept, Cahiers de la recherche en éducation, Volume 2, Number 2, 1995, erudit, pp227-265, DOI: https://doi.org/10.7202/1018204ar .

(25) voir Dominique Wolton, Eloge de l'interdisciplinarité, les editions ovadia, France, 2009, p8.

المعارف[٢٦]؛ إذ يُفهم هنا أن هناك دعوات صارخة لضرورة تغيير النمطية المعهودة في علم الاجتماع إلى آفاق جديدة تسمح بمواكبة التأثيرات الجديدة؛ فالاقتصار على سبل البحث الكلاسيكية ما عاد مُجديًا بل أكثر من ذلك هو ضار الآن؛ ذلك أن الراهن اليوم يفرض علينا منطقًا جديدًا، فتعقيد الحياة وتشابكها فيما بينها وتنوع التأثيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتمت على الباحثين أن يتوجهوا نحو البحوث التي تتقاطع فيما بينها مع غيرها من البحوث، ذلك أن عملية الخلوة والانفراد بالتخصص، أصبحت كمن يداوي بالكيّ رِجلًا من خشب، أي أنها أصبحت بلا جدوى.

استطاع التّقاطع المعرفي أن يجد حلولًا عملية، وبالنسبة للعلوم الاجتماعيّة نستطيع أن نسمي هذا الحدث (التقاطع المعرفي في علم الاجتماع) بالأخبار الجيدة؛ ذلك أن هناك إلحاحًا منذ وقت طويل على تكبير واتساع حقيقي للتخصص، والمطالبة بموضوع دراسة لميادين علمية مختلفة، والدعوة إلى ضرورة المشاركة فيما بين التخصصات والأقسام الجامعيّة[٢٧]؛ ذلك أن هذا العلم لن يجد حقيقته إلا إذا غادر حدوده وتوجّه نحو ما يحدث في الواقع، وما يحدث هو أن هناك متغيرات اجتماعية تُحتّم على الباحثين في علم الاجتماع أن يتوجّهوا نحو فك التعقيد والتركيب، وهذا لا يتم إلا بالجلوس على طاولة الحوار مع ما لهذا العلم من علاقات مع العلوم المجاورة له. وعلى سبيل المثال هناك مؤتمر انعقد في فرنسا بعنوان:

(Les sciences humaines et sociales face à l'interdisciplinarité dans les recherches en santé Pratiques, lieux, enjeux et perspectives)

أين تم فيه مناقشة قضية التقاطع المعرفي في العلوم الاجتماعية والإنسانية وعلاقتها بقطاع الصحة، ومن ضمن المداخلات التي قُدّمت نجد مداخلة بعنوان Formes et pratiques de l'interdisciplinarité : quelle place pour les sciences sociales ? ، لصاحبها كاستل باتريك (Castel Patrick) إذ يركز فيها على ضرورة إشراك علم الاجتماع لفهم الأزمات الصحية، وقد قدّم مثالًا على ذلك حول أزمة السيدا؛ بحيث يتحدث صاحب المقال على أن التخصصات المتنوعة ساهمت في تقديم تحكم أفضل للجائحة آنذاك، وأن الأمر لم يتمّ فقط من زاوية الصحة، فقد اهتم التقاطع المعرفي هنا بإقامة روابط بين أنثربولوجيا الطب وعلم اجتماع الصحة، وبين البيوطبي، وقد بينت الدراسة على أهمية رد الاعتبار للعلوم الاجتماعية في الأبحاث المتعلقة بالسيدا في الكاميرون، أين توصل الباحث إلى أن التقاطع المعرفي في علم الاجتماع مع الطب والعلوم الإنسانية مكن

(٢٦) حسين سالم مرجين، العلاقات البينية بين علم الاجتماع وعلم الحاسب الآلي "المفاهيم والمنهجية"، ٢٠١٥، كلية الآداب، جامعة طرابلس، ص١-٢١.

(27) voir Guy Bellemare - Daniel Tremblay, Le défi de l'interdisciplinarité : ce que les «sciences sociales appliquées» peuvent apprendre des «sciences sociales fondamentales», Collection Études théoriques, no ET0707, 2007, Bibliothèque et Archives nationales du Québec, p1-36.

البُحاث من معرفة شاملة على الجائحة، كما أن العمل ضمن فريق جامع متألف من الباحثين في علم الاجتماع، مع المتخصصين في الطب، والأنثروبولوجيين، مكنهم من الحصول على استراتيجية جد فعالة وشاملة لم تكن من قبل موجودة، وقد استفاد المرضى أيضًا برعاية صحية أفضل وأكبر من سابقاتها، كما سُمح للقائمين على المرضى بمتابعتهم من خلال حركية المعلومات والمعارف التي تجري فيما بين التخصصات[٢٨]، وهذا ما يُوضّح قيمة أن يُدرس علم الاجتماع ضمن علاقاته وتداخلاته مع التخصصات الأخرى؛ فالظواهر الاجتماعية يشترك في دراستها أكثر من علم واحد، هذا الأمر الذي فرض على تلك العلوم أن تتداخل فيما بينها، وهذه التداخلات توضّح أنه ليس ثمة علم مستقل استقلالية مُطلقة؛ بل يبقى مترابطًا مع غيره من العلوم، فهو يرتبط بالكثير من العلوم التي تساعده على تحقيق أهدافه، ولهذا فإن الترابط والتداخل بين علم الاجتماع وتلك الفروع من العلوم يؤدي إلى تفاعل وثيق واعتماد مُتبادل في فهم الظواهر والأحداث والتركيبات الاجتماعية، كما أنّه لا بدّ من التوسع والشمولية أكثر فأكثر.

وفي إحدى المقالات المعنونة باسم le jeune chercheur et l'interdisciplinarité en sciences sociales، نجد صاحبها يقدم مجموعة من النصائح للباحث في علم الاجتماع، ويصفه أنه في البداية يبدأ البحث عن فضول، لكنه لما يعرف المعنى الحقيقي للتقاطع المعرفي بين علمه والعلوم الأخرى، فإن الباحث ينتقل من مرحلة الفضول إلى مرحلة حب البحث والاقتناع به، كما وصل في النهاية إلى أن الباحث في علم الاجتماع سيجد نفسه أمام أسئلة متعددة ذات صلة بالعلوم الأخرى، هذا الذي حتم عليه أن ينتهج لنفسه نهجًا جديدًا[٢٩]، وهو الإعلان عن انضمامه للبحث الجماعي الذي يشمل تخصصات عدة.

أكد الباحثون على أهمية هذا النوع من الدراسات في العلوم الاجتماعية؛ بحيث تتضح أهميتها في كونها تستحدث أساليب علميّة مُتنوّعة وأدوات بحثية ومعاملات مختلفة، مما يفتح آفاقًا للعمل المشترك، وتخليص الباحثين من عقلية البحثية الفردية والحفر في حفرة واحدة بمعزل عن المعرفة الكونيّة المُتاحة عالميا[٣٠]؛ مما يوفر بيئة مناسبة للتعارف وتوثيق التواصل المستمر بين الباحثين من تخصصات مُختلفة، وتقديم صورة شاملة عن التخصص الأصلي والتخصصات اللاحقة المضافة له، وهذا الذي يزيد المتخصص في علم الاجتماع من درجة الاستحقاق والجدارة؛ لأنه أصبح يستفيد من مناهج أخرى ويستطيع أيضًا اشتقاق مفاهيم وفرضيات ومقولات

(28) Voir Castel Patrick, forms et pratiques de l'interdisciplinarité: quelle place pour les sciences socials?, 11/12/2017, Centre de sociologie des organisations, p1-19.

(29) Éve anne buhlera et autres, le jeune chercheur et l'interdisciplinarité en sciences socials, edp sciences, vol14, 2006, p392-398.

(٣٠) محمد سيد بيومي، معوقات تفعيل الدراسات البينية في العلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، د س، ص١٢٣-١٣٩.

علمية مبنية على أدلة واقعية يمكن اختبارها فيما بعد، وهي فرصة له لاشتقاق قوانين علمية جديدة واختبار فرضياته البحثية.

وعليه يُمكن القول إن التقاطع المعرفي عمومًا له من الأهمية ما يجعل علم الاجتماع ينهل منه ولا يرضى إلا أن يكون حاضرًا في ميدانه؛ ذلك أن هذا النوع من الدراسات باتت ضرورة ملحة خاصة أمام تعقيد الحياة الذي نشاهده يوما بعد يوم، فطبيعة التعسير الاجتماعي المشهود فرض على المشتغلين في هذا الحقل أن يسألوا عن حدود تخصصاتهم مع تخصصات أخرى؛ ذلك أن البقاء في كومتهم دون رؤية ما يحدث على أرض الواقع لن يُفضي إلى أي نتيجة فعالة؛ بل بالعكس من ذلك سيبقى حبيس التخصص والانعزال فيه، كما أن علم الاجتماع ليس بذلك العلم الذي يمكن وصفه على أساس أنه جاف؛ فالخطأ يكمن في المشتغلين فيه؛ إذ أرجعوه كلاسيكيًا تقليديًا معزولًا عن الحياة والواقع؛ لذلك لا بد من أن نفهم بأن علم الاجتماع هو ذلك العلم الذي ينبض بالحياة، فهو متفاعل مع الحياة الاجتماعية، وليس مفهومًا ثابتًا يتسم بالجمود والخمول؛ بل إنه مفهوم تغمره الحركية الدؤوبة والنشيطة، فهو يبحث عن التساؤلات المتميزة والنوعية التي يتم طرحها بغية الوصول إلى إجابات تساعد على الفهم والتفسير والتحليل والتركيب حتى نتحصل على صورة شاملة عن طبيعة الحياة من زوايا متعدّدة، وهذا الذي لمسناه عند البولندي باومان، فأردنا أن نوضح كيفية لجوؤه إلى تخصصات أخرى ليقدم في النهاية تحليلًا اجتماعيًا بامتياز، فقد لجأ إلى زوايا متنوعة لتخصصات متعددة، قصد تقديم الصورة الجديدة لنظام المجتمع الحالي، والذي كان يسميه دومًا بنظام المجتمع السائل، وهذا الذي سنعرفه في الصفحات المقبلة.

٥/-التقاطع المعرفي عند زيغمونت باومان:

قبل الحديث عن التقاطع المعرفي عند باومان تجدر الإشارة إلى المفهوم الذي انطلقنا منه، وعليه فإن التّقاطع المعرفي عملية جمع بين تخصصين فما أكثر على الأقلّ وإيجاد جسور التواصل فيما بينهم من أدوات ووسائل التحليل إزاء مُشكلة مُعيّنة، وعليه فإن التقاطع الموجود بين التصورات والمفاهيم، وبالاستعانة مع وسائل التحليل والتفسير المختلفة من التخصصات الأخرى، نجد أن زيغمونت باومان استعمل هذه الطريقة ليقدم تصورات ومفاهيم جديدة، وكذلك من بين الذين طرقوا باب التخصصات الأخرى حتى يقدم معاني ومفاهيم تتضمن بدورها الشراكة بين العديد من التخصصات، ولتحديد ذلك سنتناول المرجعيات المختلفة لباومان، فعندما نبحث فيما كتبه يُصادفنا تنوع وتعدد في العلوم، فتارةً يجعلُك وكأنك أمام محلل وخبير اقتصادي، ثم تنتقل إلى محلل سياسي للأوضاع، وبعدها نجد التأصيل التاريخي

للأحداث ونخص بالذكر حادثة الهولوكوست التي بحث فيها كثيرًا، ولا عجب أن نجد أنفسنا أمام أعمال فنانين وبالضبط الرسم، ثم الاستعانة بمفاهيم فيزيائية وتوظيفها للحصول على معنى ملائم مثل مفهوم السيولة، وفي النهاية يقدم كل هذا في إطار وصف اجتماعي، فحقيقة هناك انتقال من علم لآخر، وهذا ما سنعرفه.

١,٥-/- تعدد المرجعيات وتقاطعها عند باومان:

ذلك أننا وجدنا باومان في العديد من المجالات، فهو متعدّد المرجعيات بحيث إن حضوره لم يقتصر فقط على علم الاجتماع بل كان من المناهضين لسياسة الانفراد بالتخصص والتوغل فيه دون الاطلاع على ما لهذا التخصص من تقاطعات ضرورية مع التخصصات الأخرى، وهنا نستحضر مقولة إدغار موران (...أن العلوم أغلقت على نفسها وأصبح كل تخصص متلهفًا لتمييز نفسه عن الآخر، وأصبحت التخصصات مغلقة لا تتواصل مع بعضها البعض وهذا من التناقض؛ لأن لها نقاطًا مشتركة تجعلها من المفروض تُخاطب بعضها البعض...»[٣١]. وهذا يعني أيضًا أن الانفرادية بالتخصص لا تجدي نفعا بل لا بد من مشاركة التخصصات بعضُها لبعض، وهنا يمكن القول إنه على علم الاجتماع أيضًا مثلما يقول ميرتون في أمنيته (le souhait de merton): «علم الاجتماع سوف يتقدم في الدرجة التي يكون فيها اهتمامه الرئيس هو تطوير نظرية المدى المتوسط، وسيشعر بالإحباط إذا تركز الاهتمام على النظرية على نطاق واسع»[٣٢] يعني بتعبير آخر أن علم الاجتماع سينمو ويتطور ويزدهر عندما ننزله من البانوبتيكون الذي تحدث عنه باومان أي من السجن الانفرادي (التخصص) إلى الساحة المشتركة للعلوم أين يجد نفسه مع باقي التخصصات[٣٣]، وهنا بالضبط يصفه تاركوفسكي[٣٤]* على أنه، «معلم رائع، يجذب الشباب من حوله، الذين يتوقع منهم معايير عالية ومنهم من لديه موهبة في الاستفادة من إمكاناتهم الكاملة؛ تجتمع مجموعة منهم في شقته لعقد ندوة كل يوم سبت لمناقشة الأفكار، بحيث يحظى بومان بإعجاب كبير الآن في أوروبا الشرقية وروسيا حيث يحاضر بانتظام»[٣٥].

فباومان يعتبر شخصية رئيسة في علم الاجتماع الأوروبي، ويهيمن على عمله القلق الناجم عن تعاقب الأزمات السياسية والاقتصادية والأخلاقية التي تؤثر على مجتمعاتنا المعاصرة ، من التكلفة البشرية للعولمة إلى الأخلاق، عالم المستهلك ، يحمل عمله

(31) Morin, e, l'ancienne et la nouvelle transdisciplinarité, collection points, 1 er edition, paris, 1982, p122

(32) Yves Lenoir, l'interdisciplinarité:Aperçu historique de la genèse d4un concept, ocite, p 1-40.

(٣٣) زيغمونت باومان، الخوف السائل، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧، ص١٢.

(٣٤)* مخرج وممثل وكاتب روسي، منظرسينمائي ومديرأوبرا.

(35) Theguardian, Passion and pessimism, Madeleine Bunting, la date : 25/04/2020, H : 18 :06, https://www.theguardian.com/books/2003/apr/05/society.

تشخيصًا لعصرنا دون السماح لنفسه بالوقوع في أطر نظرية، وذلك من خلال تنويع زوايا التفسير، والانخراط في حوار مستمر مع العديد من المؤلفين، من (كامو)[٣٦]*Camus إلى [٣٧]* Levinas (ليفناس)، من[٣٨]* Gramsci(غرامشي) إلى Arendt [٣٩]*(أرندت)؛ إذ تمكن بومان من تبني تعقيد الظواهر الاجتماعية من خلال تغطية مجالات مسبقة للتّفكير وهي مجالات تبدو غير متجانسة -من التشكيك في وضع المحرقة في تاريخ الحداثة الصناعية إلى ظهور الاستهلاكية في مجتمعاتنا التي أصبحت سائلة[٤٠]-، ومعنى ذلك أنه تمكن من تبسيط الظواهر الاجتماعية المُعقّدة التي كانت تبدو غريبة واستطاع أن يقدم لها تفسيرات نابعة من تعدده المعرفي وتنوعه في المجالات وعلى سبيل المثال حادثة الهولوكوست، التي كانت تُتناول فقط من جانب تاريخي معروفة باسم المحرقة، أو محرقة اليهود، لكن الحادثة عنده أكثر من ذلك فليست مجرد حدث تاريخي عابر؛ بل تعتبر تجسيدًا لمرحلة الحداثة، وتعتبر إحدى ثمار الحداثة التي جناها الإنسان، وبالتالي فقد أعطى للحدث التاريخي بُعدًا فلسفيًا وتقنيًا، فالحداثة التي وعدت الإنسان بحياة أفضل أوقعته في مآسٍ كثيرة لدرجة أنها أدخلته في مرحلة أخرى يسميها بمرحلة ما بعد الحداثة، أو السيولة المائعة.

فهو يفضل التأكيد الشّامل الذي يُمكِّن للقارئ قبوله أو رفضه أو التفكير فيه، إنه لا يبني حُججه على أساس تجميع الحقائق، بل على الاستفزاز، كما أنه غير مستعد لقبول الحدود التقليدية لعلم الاجتماع؛ فهو في فواصل علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس. ... فهو يسعى لاتساع الآفاق[٤١]؛ بمعنى أنه رفض التصور التقليدي لعلم الاجتماع المبني

(٣٦)* ألبرت كامو (١٩١٣/ ١٩٦٠) ولد بقسنطينة في الجزائر، تحصل على الليسانس في الفلسفة من جامعة الجزائر، وواصل دراسته العليا وتحصل على دبلوم في الدراسات المسيحية واليونانية، شارك في الحزب الشيوعي، كما كان محررًا في جريدة "الجزائر جمهورية" له عدة مؤلفات منها الطاعون، الصيف، السقطة، المنفى والمملكة، مات بسبب حادث سير مميت سنة ١٩٦٠.(ألبير كامو، حالة طوارئ، ص٨).

(٣٧)* إيمنويل ليفناس (١٩٠٦/ ١٩٩٥م) ولد ليفناس في عائلة يهودية من ليثوانيا، تعلم منذ صغره الروسية والعبرية، يعدّ من القارئين الجيدين لدوستويفسكي وتولستوي وغوغول، في عام ١٩٢٣ بدأ دراسة الفلسفة تحت إشراف موريس برادين، وشارل بلوندين له عدة مؤلفات من أشهرها: الوجود والموجودات، الكلية والمطلق الأبدي، عُين أستاذا للفلسفة في جامعة بواتييه.(جون ليشته، خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ص٢٤١).

(٣٨)* أنطونيو غرامشي (١٨٩١/١٩٣٧) إيطالي المولد، كان له اهتمام باللسانيات وبالأدب الإيطالي، كانت له إسهامات صحفية مثل "صرخة الشعب" أسس مع بعض الشبان آنذاك منتدى الفلسفة الأخلاقية، وكانت له العضوية في الحزب الشيوعي الإيطالي، وكانت حياته مغمورة بالمتاعب فهو السجين لسنين طويلة. (أنطونيو غرامشي، شجرة القنفذ والرسائل الجديدة، ص٩).

(٣٩)* ولدت في مدينة هانوفر الألمانية سنة ١٩٠٦م، درست في جامعة ماربيرغ، حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة هايدلبيرغ، درست تحت إشراف كارل يسبرس، عملت مديرة للبحوث في مؤتمر العلاقات اليهودية، ورئيسة تحرير لمكتب شوكن، وأستاذة زائرة في عدد من الجامعات منها جامعة كاليفورنيا، وكولومبيا، وشيكاغو، لها عدة مؤلفات منها: أصل التوليتارية، أزمات الجمهورية، بين الماضي والمستقبل، في العنف. ماتت في ديسمبر ١٩٧٥.(حنة أرندت، في الثورة، ص١٢).

(40) franceculture.fr, Nous vivons dans une "société liquide", INSTITUT FRANÇAIS DE LA MODE, la date :25/04/2020, H : 18 :40,https://www.franceculture.fr/conferences/nous-vivons-dans-une-societe-liquide.

(41) Theguardian, Zygmunt Bauman obituary, Mark Davis and Tom Campbell, la date : 25/04/2020, H : 18 :18, https://www.theguardian.com/education/2017/jan/15/zygmunt-bauman-obituary.

على الانفرادية في التخصص، والاستغراق في حدوده؛ بل لا بد من تجاوز حدود علمه إلى علوم أخرى تخدمه، ولا عجب أن نجد باومان ممن يطلبون ذلك؛ لأن مرحلته الزمانية كانت مليئة بالدراسات التي تصب في منحنى التقاطع المعرفي، فهو معاصر لإدغار موران، وهو مُطلع لما قدمه فوكو وميشال سار؛ بل إنه قد تأثر بالفكر البنيوي وما حمله من نتائج؛ لذلك تميزت كتاباته بفسيفساء معرفية، فمن كل تخصص معرفة يقدّمها للقارئ ويجعله متنقلا من علم لآخر.

أ/- التاريخ برؤية جديدة:

نجد أنّ بومان متتبع لسيرورة التّاريخ شغوف بها، رابطًا معه التّحركات السياسية التي من شأنها في بعض الأحيان توجيه حركة التاريخ وأكثر ما يظهر اهتمامه بالتاريخ، ما قدّمه في دراسته حول "الهولوكوست" بحيث إنه خصّص كتابًا بأكمله لمثل هذه الحادثة، فباومان رغم خلفيته اليهوديّة يرفض التّعامل مع "الهولوكوست" على أنّها حدث تاريخي خاصّ بألمانيا فقط أو مأساة يهوديّة تخصّ التّاريخ وحده؛ بل إنّه يضعها في سياق الحداثة الغربيّة العقلانيّة، ويُفكّك مصطلح معاداة السّاميّة، ويُظهر عدم مقدرته التّفسيريّة كما يُؤكّد أنّ معاداة اليهود نفسها لا تصلح أن تكون نموذجًا لتفسير الهُولوكوست؛ بل إن العداء وحده لا يصلُح تفسيرًا لأي إبادة فالمُعاداة الشّعبيّة الألمانية لليهود في بداية القرن العشرين تكاد لا تذكر، بل كانت الجماعات اليهوديّة في أنحاء العالم تنظر إلى ألمانيا آنذاك باعتبارها مثالا يُحتذى به في المساواة والتاريخ[٤٢]. ومعنى ذلك أنه رفض التفسير الساذج لتلك الحادثة فالجميع كانوا يعتبرونها معاداة لليهود وكرها لهم، لكن الواقع أبعد من ذلك بكثير فقد كانت الحادثة حسبه تعبيرا عما جرى في سياق الحداثة الغربية، كما أن مصطلح معاداة السامية لا يعني حسب باومان أمرًا بسيطًا؛ بل القضية معقدة والدليل أن اليهود أنفسهم شاركوا في الهولوكست، فهذا تعقيد يحتاج التأمّل.

فلمّا نُلاحظ ما يتصدّره باومان من أفكار كهذه، يتضح أنه يريد الكشف عن حقيقة تاريخية، وعمل كهذا يستدعي منه أن يكون ذا مرجعية تاريخية، بحيث ينبغي العودة إلى الأحداث التاريخية ودراستها دراسة تفصيلية، فالحداثة والهولوكوست، هذا الكتاب كما يقول: «...ليس بحثًا تاريخيًا فقط يهتمّ بسرد الأحداث وحشد المعلومات، بل بالإضافة إلى ذلك يقوم على لغة نقديّة مجازية تجعل القارئ يعيشُ معاناة إنتاج المعنى والرّؤية الكامنة وراء المعلومات والتّفاصيل...»[٤٣]، وهنا يبرز التقاطع المعرفي عنده فهو الآن بصدد المزج بين المنهج النقدي وتوظيفه لصقل الحوادث التاريخية، فلم يكترث باومان بصحة أرقام

(٤٢) ا زيغمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، دنيا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ص٢٤.

(٤٣) المصدر السابق، ص٢٥

الضحايا، ولم يهتم بإحصاء عدد معسكرات الاعتقال، ولم يجمع الخرائط التي تحدد مواقع الإبادة؛ بل اجتهد في دحض الأسطورة السائدة في النظرية الثقافية المعاصرة، فهو اطلع على الأحداث التاريخية موظفًا جانبًا إبستيميًا معرفيًا يجعله يمحّص ما ينقل من الأخبار[٤٤]، أي أنه استدعى تخصصين اثنين حتى يتمكن من فهم حادثة الهولوكوست؛ إذ إن أغلبية الناس يقدمونها على أساس أنها حادثة تاريخية أمَرَ بها هتلر ضد اليهود، لكن باومان بحكم هذا المزج كشف على أنها من نتاج الحداثة الغربية ليس إلا، والدليل على ذلك أن هناك يهودًا شاركوا في المحرقة ضد ذويهم وبالتالي فالقضية قضية سيادة الحداثة آنذاك، وكأننا مع ابن خلدون آخر الذي دعا إلى النظر والتفكر في نقل الأخبار والروية وعدم الثقة بالناقلين، والتعديل والتجريح والاطلاع على الأحوال والوقائع في العمران[٤٥].

ومما يبين المرجعية التاريخية عنده انفتاحه على التّاريخ، ليس لنقل الأحداث والتغني بها؛ بل لإضفاء أسلوب النّقد عليها، ما ذكره حول عنصر المجالس اليهودية وتعاونها مع النازيين؛ إذ إنه يمثل إحدى أهم المراجعات النقدية للتاريخ المتحدث عن الهولوكوست سعيًا إلى إبراز المفارقة الكبرى التي صاحبت تنفيذ جرائم الهولوكوست؛ إذ لعبت المجالس اليهودية نفسُها دورًا وظيفيًا في هذه العمليات، وكأن الجماعات اليهودية في أوروبا حفرت قبرها بنفسها فالهولوكوست كما يؤكد بومان تضمنت جرائم ارتكبها اليهود أنفسهم تنفيذًا للنازية وأوامرها، وهم ضحايا على كل حال، وكانوا على طاعة عمياء في إطار قواعد العمل البيوقراطي مع المسؤولين الألمان، وهكذا أمدّت المجالس اليهودية الألمان بالمعلومات والمال والعمال، وأفراد الشرطة، ووظف الضحايا مهاراتهم في إطار عقلاني بيوقراطي[٤٦]. وقد تناول عبد الوهاب المسيري هذه القضيّة المسكُوت عنها في فصل كامل بعنوان التّعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين في كتابه: الصهيونية والنازية ونهاية التّاريخ، ورأى أنه قد تورّط في هذا التعاون أعضاء من الجماعات اليهودية وأن النازيين حاولوا قدر الإمكان أن يضموا العناصر اليهودية والصهيونية التي كانت تؤمن بإخلاء أوروبا من اليهود والاهتمام بالهجرة، لا المقاومة أو الثورة ضدّ النازية[٤٧].

وممّا يُبيّن تتبّعه للتّاريخ بممارسة نقديّة هو موقفه إزاء الصّهيونية؛ إذ يُؤكّد بومان أنّ الصّهيونية في أصلها لاسيما صهيونيّة (تيودور هرتزل١٨٦٠-١٩٠٤) مشروع علماني صدر عن فشل عمليات الإدماج في أوروبا الليبرالية لا عن التراث الديني اليهودي أو إحياء حبّ صهيون، وفي لقاء صحفي مع الجريدة البولندية (بوليتيكا)، شنّ باومان هجوما على

(٤٤) المصدر نفسه، ص٢٦.

(٤٥) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ط١، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥، ص٢٢٣.

(٤٦) زيغمونت باومان، المصدر السابق، ص٣٠.

(٤٧) عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، ص٨٥.

الصهيونية مؤكدًا أن قادة اسرائيل يوظفون صناعه الهولوكوست في إضفاء الشرعية على القمع الذي تمارسه، واتّهم أولئك القادة بأنهم يبذلون كل ما في وسعهم لإشعال نيران الحرب وإفشال السلام واستشهد بمقولة المؤرخ البريطاني (توني ديجت) في مقالة شهيرة له نشرت عام ٢٠٠٣ في (مجله نيويورك بورك ريفر)؛ إذ أكد أن إسرائيل أخذت تتحول إلى دولة عرقية وراء المعتقدات، وتجهل التسامح وتعكف على إثارة الحروب وأن عملية السلام في الشرق الأوسط لم تمت ميتة طبيعية بل جرى قتلها[٤٨]. وهنا بالمناسبة دخول الجانب السياسي مع الجانب التاريخي، وهو ما يتضح جليًا في فهم العلاقات الدولية.

كانت "الهولوكست" في واقع الأمر مأساة يهوديّة، وصحيحٌ أنّ اليهود لم يكونوا الجماعات الوحيدة الّتي تعرّضت إلى معاملة خاصّة على يد النّظام النّازي حيث كان ٦ ملايين يهودي من بين أكثر من ٢٠ مليون ضحيّة أزهقت أرواحهم بأمر من هتلر، لكن كان اليهود وحدهم هدفا للتّدمير الشّامل، ولم يُخصّص لهم مكان في النظام الجديد الذي نوى هتلر تأسيسه ورغم ذلك لم تكُن "الهولوكوست" مجرّد مشكلة يهوديّة، ولم تكُن حدثًا في التّاريخ اليهوديّ وحده، لقد وُلدت "الهولوكوست" ووقعت في مجتمعنا الغربي العقلانيّ المُعاصر، وفي أوج مجد حضارتنا، وفي ذروة إنجازنا الثّقافي الإنسانيّ، ولهذا السّبب فهي مشكلة من مشكلات المُجتمع الغربيّ والحضارة الغربيّة، والثقافة الغربية[٤٩]. فرفضه التعامل مع قضية الهولوكوست بوصفها حدثًا تاريخيًا فقط دليل على خاصية التقاطع المعرفي عنده؛ لأنه يدعو إلى فهمه على أساس أنه نتيجة حداثة غربية.

وفي السياق التاريخي نفسه يذكر بومان أنّ هتلر لم يسأم من لغة الخطابة التي تفوح بالصور المجازية الموحية بالمرض والطّاعون والعدوى واكتساح طفيليات، ولقد شبّه المسيحية والبلشفيّة بالطاعون ومرض الزُّهري، ووصف اليهود أنّهم بكتيريا وجراثيم وآفات وطُفيليات مُميتة، وفي حديثه إلى (هاينر يشهيملر) ذات مرّة عام ١٩٤٢ أكّد هتلر أنّ اكتشاف الفيروس اليهودي هو إحدى أعظم الثّورات التي شهدها التاريخ؛ فالمعركة التي نخوضها اليوم هي المعركة نفسها التي شنّها لويس باستور، وروبرت كوخ خلال القرن الماضي، فكم من أمراض عديدة تعود إلى هذا الفيروس اليهودي، والسبيل الوحيد لاستعادة صحتنا هو إبادة اليهود، وفي أكتوبر من العام نفسه صرح هتلر قائلًا:(عندما نبيد تلك الآفات، فإننا نسدي بذلك خدمة كبيرة للبشرية)[٥٠]؛ فمن خلال هذه الأسطر يتضح أن باومان يوظف التاريخ في دراساته؛ فلكي يتوصل إلى النتيجة الاجتماعية القائلة إن الهولوكست ليست مجرد حدث تاريخي؛ بل هي نتيجة الحداثة الغربية، نجد باومان ملزمًا بقراءة التاريخ والعودة إلى ما كتب في صفحاته

(٤٨) زيغمونت باومان، المصدر السّابق، ص ٣٢.

(٤٩) المصدر نفسه، ص٤٣،٤٢.

(٥٠) المصدر السابق، ص. ص. ١٤٤،١٤٣.

وتجده أيضًا مستعملا أهم المناهج التاريخية، وهو النقد، وفي النهاية يصل إلى النتيجة التي أراد أن يوظفها باعتبار أنه ليس كل تاريخ يبقى ثابتًا مثل ما تعوّدنا عليه، وأن هناك مغالطات وضعت لأغراض محددة يعلمها صاحبها. وعليه فإن الجانب التاريخي عند باومان يُظهِر أنه رجع إلى التاريخ وأخذ منه؛ غير أنه لم يتناوله باعتباره حدثًا تاريخيًا يتم سرده؛ بل مزج معه جانبًا نقديًا مما أضفى على الحادثة -على سبيل المثال- أبعادًا متنوعة لم تقتصر فقط على بُعد واحد.

ب/- المرجعية السياسية وتشابكها مع التاريخ:

دخل باومان عالم السياسة لكن بطريقه خاصة، فهو حَذِر في مثل هذه النقاط، وقد دخلها واقتحمها بعد تمحيص طويل، وما يبرر مرجعيته السياسية أنه في سبتمبر ٢٠٠٧ كان موقف باومان واضحًا من الناحية السياسية؛ إذ وقَّع هو وجماعة بريطانية تُسمى(يهود من أجل العدالة الفلسطينية) على خطاب بجريدة التايمز[٥١]*، يطالب وزير الخارجية البريطاني ديفيد ميلباند[٥٢]* بأن يعارض في الأمم المتحدة العقوبات الإسرائيلية على غزة، وأن يرفض عقابها الجماعي للفلسطينيين وانتهاكها للقانون الدولي، وغرسها للعداء والكراهية في الشرق الأوسط، ولطالما انتقد باومان إسرائيل والمجتمع الدولي بسبب معاناة ملايين اللاجئين الفلسطينيين، وهو لا يتردّد في فضح استغلال ساسة إسرائيل للهولوكوست من أجل إضفاء الشرعية على جرائم الماضي والحاضر والمستقبل بحق العرب والفلسطينيين[٥٣]، فقد اهتم بالسياسة، وكان شغوفًا بها خاصة لما كشف بتحليلاته الخاصة أن قضية المحرقة اليهودية "الهولوكست" ليست مثلما نعرفها، وليست مجرد حدث تاريخي عابر وليست فقط معاداة للسامية؛ بل هي نتيجة لتراكمات الحداثة الغربية، فمن هنا أراد أن يخاطب العالم بقوله لماذا يجعل اليهود من المحرقة ذريعة ينالون بها الشفقة في العالم، ولماذا يجعلونها ذريعة لمعاداة الفلسطينيين بحكم أنهم ظُلِموا عبر التاريخ؟ فهو بكشفه عن هذا الغطاء دخل في مضمار السياسة العالمي ليبرر وجوده الفعلي في هذا الميدان.

وفي إحدى اللّقاءات الصّحفية مع الجريدة البولندية (بوليتيكا)[٥٤]* شنّ باومان هجوما على الصّهيونية مؤكّدا أن قادة إسرائيل يوظفون صناعه "الهولوكوست" في إضفاء الشّرعية على القمع الذي تُمارسه إسرائيل والجرائم التي ترتكبها، واتّهم باومان قادة إسرائيل صراحة أنّهم يبذلون كل ما في وسعهم لإشعال

(٥١)* جريدة التايمز: جريدة بريطانية عريقة، يومية تأسست في لندن عام ١٧٨٥م.

(٥٢)* دفيد ميلباند ولد في ١٩٦٥، الابن الأكبر لعالم الاجتماع رالف ميليباند، وهو سياسي، دبلوماسي، اقتصادي بريطاني، شغل عدة مناصب منها وزير الخارجية، ووزير البيئة، وعضو مجلس العموم، تخرج من جامعة أوكسفورد.

(٥٣) زيغمونت باومان، المصدر السابق، ص٣٢.

(٥٤)* صحيفة يومية، تأسست عام ١٩٠٤، بواسطة فلاديسلاف ريبنيكار.

نيران الحرب وإفشال السلام، بل إنّه يجزم بأنّه لا يوجد اختلاف كبير بين الجدار العازل الذي يحيط بالأرض الفلسطينية المحتلة، والأسوار التي كانت تحيط بجيتو وارسو إبّان الحقبة النازية، يقول باومان: «... كنت أعبّر عن آراء مشابهة قبل ما يقرب من أربعة عقود في جريدة (هاآرتس)[٥٥]* عندما كنت أعيش في إسرائيل عام ١٩٧١ بعدما طُردت من بولندا؛ إذ أعربت عن مخاوفي من السّمات القمعية السامية للاحتلال الإسرائيلي، وما تحدثه من تفسخ لأخلاقيات المحتلين، وتعفن لوازعهم الأخلاقي وآنذاك كان يساورني القلق بأن الأجيال الإسرائيلية الشّابة كانت تزداد قناعة بأنّ حالة الحرب والاستعداد العسكري ... من الأمور الطبيعية المعتادة»[٥٦] فقد أشار إلى تهرب هذه الدولة من المشاكل الحقيقية، وذلك بأسلوب التبرير الخارجي أي إثارة مشكلة الخطر الخارجي دومًا حتى تبرر أعمالها.

كما أن باومان يُحذّر من النّاحية السّياسية على أخذ هذه الدولة لحادثة الهولوكوست باعتباره "صكّ غفران" تلجأ إليه دومًا لتعتيم الرأي العام وتوجيهه؛ فهؤلاء لا يتقنون إمكانية الحياة بلا حروب، ونخبهم السياسية تخاف من السلام فهنا لن يعرفوا كيف يحكمون بلا حروب يقول باومان: «.. إنني أشعر بالخوف بشأن استخدام حكام إسرائيل"للهولوكست" صكّ غفران لكل ما ارتكبوه من فساد وخطايا في الماضي والمستقبل، أعربت عن مخاوفي هذه، واستشهدت بكلام (مناحم بيجن)[٥٧]* عندما صوّر الفلسطينيين بأنهم نازيون يسعون لارتكاب محرقه نازية جديدة بحقّ الجماعات اليهودية، وأوضحت كيف أنّ (أبا إيبان)[٥٨]* (Abba Eban) الذي كان يشغل منصب وزير في حزب العمل، قد ردّ عليه في نظرة عتاب لطيفة يعوزها الأمانة قائلًا: آن الأوان لإسرائيل أن تقف على أقدامها لا على أقدام ٦ ملايين من ضحايا" الهولوكوست"»[٥٩]: فهنا يتضح اهتمامه بالشأن السياسي والعودة إلى أحداث سياسية كبيرة كان لها تأثيرها على اليهود، فهو يعتبر قضية الهولوكست قضية سياسية بامتياز يستغلها الفاعلون في الشأن اليهودي قصدَ إضفاء مشروعية على أعمالهم، وهنا يتضح أنه تناول الحدث التاريخي مع جانب سياسي كما يتضح لنا أنه على دراية واسعة بمجالين اثنين وهما التاريخ والسياسة؛ فقد قدم لنا صورة يمكن أن نلخصها في العبارة التالية: أن حادثة الهولوكوست ليست حدثًا عابرًا، بل هي تاريخ له دوافعه السياسية والفكرية .

(٥٥)* صحيفة إسرائيلية باللغة العبرية، تصدر يوميًا في تل أبيب، توزّع في جميع أنحاء إسرائيل، كذلك تصدر ترجمة إلى اللغة الإنجليزية، وهي واحدة من أهم الصحف الإسرائيلية، تأسست سنة ١٩١٩، في سنة ١٩٣٩ اشتراها زلمان شوكن، وهو رجل أعمال يهودي.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٥٧)* مناحم بيجن (١٩١٣/١٩٩٢) سياسي إسرائيلي، مؤسس حزب الليكود، سادس رؤساء وزراء إسرائيل، قائد المنظمة العسكرية القومية "إرجون"، حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الرئيس المصري الراحل أنور السادات.

(٥٨)* أبا إيبان: (١٩١٥/٢٠٠٢م) أوبري سوليمون مائير إيبان، شهرته أبا إيبان، دبلوماسي، سياسي إسرائيلي، خريج جامعة كمبريدج، ينتمي لحزب العمل الإسرائيلي، تولى عدة مناصب منها: عضو الكنيست، وزير خارجية. محاضر زائر في جامعة كولومبيا وجورج واشنطن.

(٥٩) المصدر السابق، ص٤١.

ج/- المرجعية الاقتصادية ودورها في البناء الاجتماعي:

بحيث إننا نجد باومان مطلعًا على الاقتصاد ويعود إلى الفلسفات الاقتصادية، بل ويتحدّث عنه في العديد من المراحل، خاصّة أنّه أعطى وصفًا دقيقًا للرأسمالية كذلك الصراع الحاصل بينها وبين الاشتراكية ، وكيف سيطرت هذه الأخيرة على العالم، يقول في كتابه الحداثة السائلة: «...اكتشف ماركس أن أفكار الطبقات المهيمنة تميل إلى أن تكون الأفكار المهيمنة، فعلى مدار قرنين من الزمن على الأقل كان مديرو المشروعات الرأسمالية هم المسيطرون على العالم، فهم من كانوا يفصلون المُمكن من غير الممكن والعقلاني من غير العقلاني، والمعقول من غير المعقول؛ بل هم من كانوا يُحدّدون ويرسمون نطاق البدائل، التي تنحصر فيها مسارات الحياة البشرية، ومن ثمة فإنّ رؤيتهم للعالم، والعالم نفسه الذي تشكل، وأعيد تشكله وفق تلك الرؤى، هي ما كانت تغذي الخطاب المهيمن، وتؤكد حقيقته)[٦٠]، وهنا إشارة إلى ما قام به كارل ماركس وفهمه أن الرأسمالية باعتباره نظامًا اقتصاديًا يحمل في طيّاته مشروع الطّبقيّة الذي قسّم النّاس إلى قسمين اثنين، قسم يملك كل شيء وهو الطبقة الرأسمالية، وقسم آخر محروم من كلّ شيء وهم الطبقة الكادحة العُمالية، وكيف أن الطبقة الرأسمالية تمكنت من زمام الأمور وسيطرت على كل شيء.

(٦٠) المصدر السابق، ص ١٠٥.

وعلى مدار قرنين من الزمان لم يجد أهل العلم عَالَمًا آخر يمسكُون به في شباكهم النظرية ويتفكرون فيه ويصفونه ويفسرونه سوى العالم الذي أفرزته الرؤية والمُمارسة الرأسمالية وطوال هذه الحقبة، كان أهل العلم ورجال الأعمال على لقاء دائم بسبب فشلهم في التَّحاور حول الحفاظ على مسافة متبادلة، وكانت غرفة الاجتماعات يحددها ويجهزها رجال الأعمال ويصف باومان هذه المرحلة بالنموذج الفوردي*، الذي كان موقع بناء معرفي تُشيّد عليه رؤية عالم بأسره، وتتربّع على قمّته التجربة المعيشة كلها...[٦١]فما نصطلح عليه باسم الرأسمالية فضل باومان تسميته بالنّموذج الفوردي الذي كان رمزًا للنظام الرأسمالي من خلال السياسات الاقتصادية التي فرضها هنري فورد على عماله، ومن خلال الطريقة الاقتصادية التي كان يتّبعها، ثم بعد ذلك يعود لذكر الشيوعية التي جاءت كرد فعل لها يقول: «... والشُّيوعيّة كانت تهدف إلى تطهير النموذج الفوردي من المواد الملوثة، من الفوضى الخبيثة التي أفرزها السّوق، تلك الفوضى التي وقفت في طريق الهزيمة النهائية الشاملة للصدفة والمصادفة، وعجّزت التخطيط العقلاني على أن يشمل

(٦١) المصدر نفسه، ص ١٠٦.

*النموذج الفوردي: استمدت الفوردية اسمها من الممارسات التنظيمية المطبقة في شركة فورد موتور كومباني ومالكها هنري فورد الذي كان رائدًا شاملًا في إنتاج السيارات، وكانت هذه الفترة الأكثر ارتباطًا بمُجتمع العمل.

الجميع، وهذا ما أكده لينين[٦٢]* نفسه عندما قال: إن رؤية الاشتراكية ستتحقق إذا نجح الشيوعيون في الجمع بين القوات السوفياتية ومُنظمي الإدارة السوفياتية وبين أحدث تقدم للرأسمالية أي التنظيم العملي للعمل ليتسرب كالماء من بين الجدران حتى يخترق الحياة الاجتماعية بأسرها ويروي عطشها[٦٣]. وهنا توضيح لطريقة العمل التي لا بد أن يعتمدها النظام الاشتراكي؛ إذ كان من الواجب أن يعمل الاشتراكيون على تخليص المجتمع من عاهات الرأسمالية من جوانب عدة؛ إذ لا بدّ من التخلص من البقية باعتبارها موروثًا اجتماعيًا، ولا بدّ من القضاء على الملكية الفردية التي أدت إلى الفوضى داخل المجتمع الاقتصادي، كما أنه لا ضرر من أن يقوم الاشتراكيون باقتراض التخطيط العقلاني من الرأسمالية بشرط أن يمتد للجميع، وليس مثلما هو عليه الحال عندها؛ إذ كان مقتصرًا على البعض فقط.

ويَقرِنُ بومان مفهوم الفوردية -في مرحلته الثقيلة والضخمة والثابتة في مكانها الضاربة جذورها في الأرض- بالوعي الذّاتي للمجتمع الحديث؛ إذ كانت مرحلة الرأسمالية الثقيلة مهووسة بالحجم والضخامة؛ بحيث يصف هنري فورد بالعبقري، كونه اكتشف الطريقة التي تبقي على كل المُدافعين عن قلاعه الصّناعية داخل الجدران، بحيث يصف خبير الاقتصاد في جامعة السّوربون دانيال كوهن[٦٤]* هذا الأمر على هذا النحو: «قرّر هنري فورد في يوم من الأيّام أن يُضاعف أجور عمّاله، وجاء السّبب المعلن على الملأ في عباراته الشهيرة أريد أن يحصل عُمالي على أجور جيّدة تكفيهم لشراء سياراتي، وبالطبع كان هذا الكلام مجرد مزحة، فمُشتريات العمال كانت تمثّل كسرًا ضئيلًا من مبيعاته بينما كانت أجورهم تُمثل الجزء الكبير من إجمالي التكاليف».[٦٥].... فالسّبب الحقيقي لرفع الأجور يكمن في أن فورد وجد عددًا كبيرًا من العمال يتركون مصنعه، ويحلّ محلهم آخرون، ولهذا قرر أن يمنح العمال زيادة كبيره في الأجور حتى يقيدهم بالمكان، أي هو مشروع إغرائي هدفه مراعاة حب التملك الوجود في الفطرة الإنسانية.

كان الرُّكاب على متن سفينة الرأسمالية الثقيلة واثقين بأن طاقم السفينة الماهر الذي له حق الصعود إلى سطح القيادة، سيبحر في النهاية إلى بر الأمان، وكان يمكن للركاب أن ينتبهوا لتعلم واتباع القواعد التي وُضعت لهم وعُرضت بخط كبير وواضح في كل ممر، إذا ما تبرموا أو تمرّدوا في بعض الأحيان، لكن العالم ما بعد الفوردي أو الذي يقرنه باومان بالرأسمالية الخفيفة يمثلهم وكأنهم على متن

(٦٢)* فلاديمير أليِيتش أوليانوف المعروف باسم لينين، ولد ١٨٧٠، توفي في ١٩٢٤، ثوري روسي ماركسي، قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، مؤسس المذهب اللينيني السياسي. له مؤلفات من بينها: ما العمل؟، الإمبريالية وأعلى حالات الرأسمالية، الدولة والثورة، المادية والمذهب النقدي التجريبي.

(٦٣) المصدر السابق، ص١٠٨.

(٦٤)* دانيال كوهن (١٩٤٥/ ...)، سياسي واقتصادي وصحفي، ومقدّم تلفزيوني، مدرس وكاتب من ألمانيا، عالم بيئة ومخرج أفلام، تولى منصب عضو في البرلمان الأوروبي.

(٦٥) زيغمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠١٦، ص١٠٥.

طائرة يصيبهم الفزع عندما يكتشفون أن مقر قيادة الطائرة خالٍ، وأنه لا أمل في استخراج المعلومات من الصندوق الأسود الغامض الذي يقال له قائد الطائرة الآلي عن المكان الذي تطير فيه الطائرة، أو الذي ستهبط فيه ومن سيختار المطار، وما إذا كانت توجد قواعد تسمح لهم بأن يَهُموا في سلامه الوصول[٦٦].

وهنا ينتقد باومان الرأسمالية الموحشة التي أدت بدورها في حصر الإنسان في بُعده الاستهلاكي فقط مما ولد عقليات اجتماعية خطيرة منتشرة على المستوى العالمي، هذه الرأسمالية حسب باومان التي وعدت الناس بتخليصهم فإذا هي تغرقهم شيئًا فشيئًا، إلى الحدّ الذي لا يجدون فيه مخرجًا، وبطبيعة الحال نجد أن باومان هنا فكك وحلل الرأسمالية باعتبارها نظامًا اقتصاديًا، وهنا الأمر يتطلب اطلاعًا واسعًا على الاقتصاد، وبعد دراسة مطولة للنظريات الاقتصادية نجد باومان يخضعها لأسلوب ومنهج تحليلي، ومن ثم لمنهج نقدي، وهذا ما يوضح استعارة باومان للمناهج والتخصصات المختلفة كي يصل إلى بناء مفهوم أو تصوّر معين؛ فهو أراد أن يصل مثلما ذكرنا إلى أننا اجتماعيًا منهكون ومتعبون ومختزلون في بُعد استهلاكي خطير للغاية تتسبب فيه الرأسمالية؛ لكنه حتى يوصلنا لهذه النتيجة وجدناه مستعرضًا النظريات الاقتصادية ومُحللًا إياها؛ بل وعاد أيضًا إلى تاريخها، ثم بعد ذلك قام بإجراء النقد والتحليل.

(٦٦) المصدر نفسه، ص١١١.

د/-تقاطع الفن مع التحليل الاجتماعي:

لقد وظّف أُسلوبًا فنيًا في كتاباته، وهذا دليل على أسلوب تشويقي يُقرّب به المعاني والأفكار إلى ذهن القارئ، خاصّة في وصفه لمرحلة ما بعد الحداثة[٦٧]*، مُستعينًا في ذلك بأعمال الفنانين ووصفهم لهذه المرحلة؛ إذ يذكر أنّ "ويليم دي كوننغ"[٦٨]*(willem de kooning) وصف في عمله الفني هذه المرحلة باللّحظة الخاطفة والرؤية العارضة، والنظرة العابرة، أما "إيف ميشو"[٦٩]*(yves michaud) أبرز المحللين لتحولات ثقافة ما بعد الحداثة وما بعد ما بعد الحداثة؛ فيجد أن التذوق الجمالي هو الهدف الذي تنفذه الثقافة بشدة، ويُراوغها دومًا إنما يستهلك ويحتفي به في عالم خالٍ من الأعمال الفنية التي يفترض أنها إضافات خالدة إلى العالم، وها هو "توم وولف"(Tom wolf)[٧٠]* يتأمل حال الفن المعاصر ومستقبله؛ فيرى أننا تخلصنا

(٦٧)* يتفق العديد من المفكرين ومن بينهم باومان على تسمية المرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بمرحلة ما بعد الحداثة، هي حداثة بعديّة من درجة ثانية، وهي حركة فكرية ظهرت بعد مرحلة الحداثة قصد إعادة النظر في المرحلة السابقة.

(٦٨)* ويليم دي كوننغ: ١٩٠٤/١٩٩٧، فنان تعبيري تجريدي أمريكي هولندي، رسام ونحات ومصمم، وأستاذ جامعي، عضو في الأكاديمية الملكية للفنون، وفي الفنانون الأمريكيون التجريديون، من أشهر الفنانين في القرن العشرين.

(٦٩)* إيف ميشو: (١٩٤٤) فيلسوف فرنسي، مؤرخ وأستاذ جامعي، شغل منصب عضو في المعهد الجامعي الفرنسي، ومدير المدرسة الوطنية للفنون الجميلة، تحصل على وسام نيشان للفنون والآداب من رتبة ضابط.

(٧٠)* توم وولف: رائد أعمال وسياسي أمريكي، ولد في ١٩٤٨م، ينتمي للحزب الديمقراطي، انتخب حاكمًا لولاية بنسلفانيا، دكتوراه في الفلسفة.

من موضوعات المحاكاة، والبعد الثالث، والإصباغ، والتكنيك، والإطار، والرّسم الزّيتي، ولكن ماذا عن الجدار نفسه، أليست صورة العمل الفنّي بوصفه شيئًا على الجدار صوره ما قبل حداثية؟[٧١]، وهنا يستعين باومان بأعمال هؤلاء كي يعبر على المرحلة الخطيرة التي يعيشها نظام المجتمع المعاصر؛ فتلك الرسومات تعبر عن عقلية جديدة سائلة وسائدة في المجتمع؛ إذ لم يعد الأفراد يتلذذون بالرسومات الكلاسيكية المعهودة بل تغير تذوقهم كليّة، وها هم يتوجّهون نحو نمط جديد يظهر للقدامى على أساس أنه تفاهة؛ لكنه حاليًا يُعدّ من خيرة الأعمال الفنية، وهنا يريد باومان إيصال رسالة هامة، وهي أننا تغيرنا كثيرًا وثقافة التغيير هذه أصبحت هي اليقين الوحيد مثلما يقول؛ ونظرًا لأن التغيير السائل اقتحم كلّ شيء، حتى الفن بوصفه ميدانا أُغرِقَ أيضًا بهذا النوع من التفكير، ومن هنا استعان باومان بما قدمه الفنانون كي يُعبّر عن الحالة الجديدة التي يمرّ بها نظام المجتمع الغربي عمومًا وكل مجتمعات العالم بالخصوص.

يقدم لنا أنموذجًا آخر وهو للفنان "جاك غيلغيه"[٧٢]* الفنان المصور، الرسام المبدع للوحات زيتية كبيرة عُلقت على جدران أرقى الصالونات الفنية بباريس، فيتحدّث عن جدار من نوع مختلف عن أداة ما بعد حداثية تمامًا، عن جدار يواجه الشّارع الذي تقع فيه الأحداث، عن نافذة لا جزء من القفص المأوي الذي اعتاد في عصر الحداثة أن يحدّد الفرق بين داخل العمل الفني وخارجه[٧٣]؛ فالجدران التي تظهر في لوحات "جاك غيلغيه" المُلصقة على جدران صالة العرض، هي جدران في المدينة هي سجلات حية للفن الحديث البارز تخضع للتحديث المستمر، ولا تنتهي أبدًا إنها سجلات لفن الحياة الحديثة، إن هذه الجدران هي الأماكن التي يمكن أن نعثر فيها على واقع الحياة الجلية والخفية التي لا تنضب ونعبّر عنها ونسجلها حتى يمكن نقلها في ما بعد إلى داخل جدران المتحف، كي يتجسد من جديد في صورة موضوعات فنية؛ فالموضوعات التي يُصورها "جاك غيلغيه" هي لوحات تحمل إعلانات وملصقات أو هي امتدادات لجدران تفصل المساكن الخاصة وصفوف المباني التجارية وتخفيها؛ إنه فن استهلاكي خاضع لسياسة المجتمع الاستهلاكي؛ فحتى يكون للفن تذوق جمالي لا بدّ أن يخضع بدوره لعقلية الاستهلاك السائدة، فكلما استهلكتَ أكثر كنتَ أفضل.

فكلّ واحدة منها خليط عجيب من المقابر ومواقع البناء، نقطة التقاء لأشياء على وشك الموت، وأشياء على وشك الميلاد لتموت بعد قليل، هنالك تظهر الرائحة الزكيّة للصمغ لتحارب رائحة الجثث المتعفّنة؛ إنها الملصقات الممزقة، قصاصات من ورق

(٧١) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان،٢٠١٦، ص٩٣.

(٧٢) فنان ورسام فرنسي مشهور يهتم بالرسم والفنّ.

(٧٣) المصدر السابق، ص٩٤.

ممزق تحلق فوق ما سيصبح قصاصات آيلة للتمزق، نصف ابتسامة على نصف وجه ناج، عين واحدة، أو أذن واحدة لا أخت لها، ركبة بلا سند ولا وصلة، ومرفق بلا سند ولا وصلة، نداءات تنقطع قبل فهمها، ورسائل تتبدد في جزء من الجملة، نداءات ورسائل يلقي القبض عليها وتتعرض للإعدام خنقًا قبل أن تجد محلًا لميلاد المعنى، نداءات أو جمل غير مكتملة لا تجد مكانا تبدأ منه[٧٤]؛ فلو عدنا بهذه الرسومات لعصر سابق لما كان لها معنى بتاتا؛ لأنها وليدة هذا العصر السائل الذي نعيشه، وبالتالي كلما كان الرسم غير متلائم مع بعضه بعضًا كان أكثر ملاءمة للوضعية والمرحلة التي نعيشها، إنه عصر الأزمات، عصر اللامحدود، والتغير، واللايقين.

والأمر نفسه ينطبق على لوحات الفنّان "مانولو فالديز"(Manuel Valdés Blasco)[٧٥]* فهي كبيرة ومتشابهة تشابهًا واضحًا، وأيا كانت الرسالة التي توحي بها؛ فإنها تحرص كل الحرص على تكرارها مرات ومرات في لوحة تلو الأخرى، إنّ "مانولوفالديز"يرسم، يجمع، يركب، يلصق الوجوه أو بالأحرى وجهًا جديدًا، وجه امرأة جديدة فكل لوحة تمثل دليلًا ماديًا على بداية جديدة، وجولة جديدة، ومحاولة جديدة لإتمام البورتريه؛ فأعمال القصّ واللصق التي أبدعها "فالديز" ركبت بمهارة وجهد طبقة تلو طبقة، قطع من الخرق بعضها مصبوغ، وبعضها على حالتها الأولى مثل: القنب، أو ألياف الجوت، وبعضها أعدت للطلاء[٧٦]؛ هذا هو الفن المحبوب في عصرنا، وليس العيب في الفنان؛ إنما العيب فيمن يتذوقون الفن؛ إذ إنهم ما عادوا يتحمّلون نظام الفن النقي الذي كان قبل هذه المرحلة؛ بل الفن الحقيقي عندهم هو أن تضع مجموعة خزعبلات تضمّ بعضها إلى بعض؛ فهذا هو الفن، أن تقوم بعملية تجميع غير متناسقة بتاتًا، فهكذا يحصل لدى العامة تذوق جمالي يقال عنه أنه رائع، ففي حياة السيولة التي نحن فيها تغير كل شيء حتى الفن أصبح سائلًا مائعًا.

أمّا الفنّان "هيرمان براون"(Hermann Braun)[٧٧]* فقد عرض أعماله في صالون باريس الفني الخامس داخل صالة 'كاروسيل دو لوفر'، ورسم ما يمكن وصفه بأنه لقاءات مستحيلة؛ إذ نجد البابا بيوس (Pie IX)[٧٨]* التاسع وهو يقرأ جريدة فيها تصريح حديث أدلى به البابا 'يوحنا بولس الثاني'(Jean-Paul II)[٧٩]*، ناهيك عن الفلاحين الذين جمعهم 'بيتر

(٧٤) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٧٥)* مانولو فالديز (١٩٤٢/...) رسام ونحّات، ولد في فالنسيا.

(٧٦) زيغمونت باومان، المصدر السابق، ص٩٥.

(٧٧)* هرمان براون: (١٩١٧/١٩٤٥) مُمثّل ألماني، من بين الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية، مات عن عمر يناهز ٢٧ سنة.

(٧٨)* البابا بيوس التاسع المبارك، (١٧٩٢/١٨٧٨) تعد فترة حكمه الأطول في تاريخ الكنيسة، من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أصبح كاردينالًا، أول من دعا إلى مرسوم العصمة البابوية، كما أنه حدّد عقيدة حمل مريم العذراء بلا دنس أي بلا خطيئة.

(٧٩)* بابا الكنيسة الكاثوليكية الرابع والستون منذ سنة ١٩٧٨ حتى وفاته سنة ٢٠٠٥، بولندي الجنسيّة، انخرط في سلك الكهنوت عام ١٩٤٦م، وأصبح أسقفًا عام ١٩٥٨م.

بروغل الأكبر'(Pieter Brueghel l'Ancien)[٨٠]* وهم يطيرون من الفرح في مطعم حديث جدًا متخصص في فن الطبخ الفرنسي الحديث، إنها لقاءات مستحيلة؟ ففي عالم يعج بحياة الاحتضار والموتى الأحياء صارت الأمور المستبعدة أمورا حتمية، والأمور الخارقة للعادة أمورًا عاديّة، فكل شيء صار ممكنًا بل لا سبيل إلى اجتنابه ما دامت الحياة والموت قد فقدا التفرقة التي تضفي عليهما المعنى.[٨١]؛ فالمُتأمّل في هذه الرّسومات يلاحظ أنه لا وجود لتناسق بتاتًا فما دخل مرحلة قديمة جدا مع مرحلة جديدة؟ وما العلاقة بين البابا بيوس الذي عاش قديمًا والبابا بولس الذي يعتبر معاصرًا، لكن الرسم المعاصر والفن الحالي عندما دمج كل هذه الصور وأخرجها في تركيبة جديدة أصبح العمل ممتازا؛ لأننا بكل بساطة في زمن المتغيرات، في زمن يقبل كل المتناقضات، وفي زمن يسمح للضدين بالاجتماع، فلا يجب استغراب هذا الأمر فنحن لم نعد نؤمن بثبات القيم وقداستها؛ بل العكس من ذلك لا بدّ من مسايرة الواقع النسبي المتغير، وكذلك الأمر بالنسبة للفن، إنه بات يساير النسبي المتغير.

إن كل من 'غيلغيه'، و'فالديز'، و'براون' فنان ممثل للعصر الحديث السائل، إنهم يمثلون عصرًا فقد ثقته بنفسه والجرأة على تخيل نماذج الكمال وتصويرها والسعي إلى تحقيقها، تلك النماذج التي لا تستدعي ولا تسمح بتعديل جديد، وربما كل تعديل جديد لا يكون إلا تشويها؛ فقد استعان باومان بمجموعة هؤلاء الفنانين كي يصف الحالة الاجتماعية التي يعبر عنها فما رسمه هؤلاء الفنانون الثلاثة، هو الذي يعبر عن حقيقة الوضع المعاش فلا شيء مكتمل؛ بل هي أجزاء متفرقة وأشياء مستحيلة الحدوث؛ فباومان استعار من الفنانين ما يرسمونه حتى يوظفه لتوضيح الفكرة التي يريدها، وهي أنّ المجتمعات الحالية مجتمعات لا تملك مرشدًا، وهي تائهة ناقصة جزئية مثل الرسم الذي تحدث عنه الرسام "براون"، أو مثل الرسم الذي رسمه "غيلغيه" فباومان نجده يحاول الانتشار أفقيًا أكثر فأكثر حتى يتم إيصال رسالته لجميع الناس، وذلك عبر طرقه الباب للعديد من التخصصات.

ومعنى ذلك أن طبيعة الرسم التي أُتُّخِذت مع هذا العصر تتماشى مع نوعية المجتمع؛ فلو كان الرّسم متقنًا متحوفًا لما وجدنا له اهتمامًا؛ لأن المجتمع المُتقن بدأت علامات اندثاره تظهر شيئًا فشيئًا، وعليه فقد عرف أولئك الفنّانون ما يلائم الذوق الاجتماعي الخاص بمجتمعهم، وقد كانوا يرسمون أجزاء متفرقة تكون متناسبة مع طبيعة المجتمع، الذي يتبادلون معه العادات والتقاليد والقيم،

(٨٠)* (١٥٢٥/١٥٦٩) رسام ونقّاش فلمنكي هولندي من القرن ١٦، عُرف بلوحاته التي تصوّر مشاهد القرى، والمواضيع الدّينية، والمناظر الطبيعية الريفية، وهو والد الرسامين المعروفين، بيتر برويغيل، ويان برويغيل، من أشهر أعماله: لوحة زفاف الفلاحين. برج بابل، سقوط الملائكة المتمردين.

(٨١) المصدر نفسه، ص٩٦.

غير أنها في الواقع لا تصلح؛ فباومان هنا حتى يوضح حجم الخطورة التي آلت إليه أوضاعنا الاجتماعية خاصة الغربية منها، استعان بتلك الأعمال التي تكون في الواقع لا تعني شيئًا؛ لكن لّما كان نظام التفاهة سائلًا في كل شيء أصبحت تظهر وكأنها كل شيء، وأضحت تنال اهتمام الكثيرين، فهذا هو واقع المجتمع السائل الذي أصبحت فيه مجموعة من جزيئات الرسم تعني الكثير والكثير في حين أن الرّسامين الحقيقيين لا يُقدرهم ولا يلقي لهم بالًا؛ فنحن غرقى في سيولة القيم إلى الأذقان، وهنا نستحضر مقولة دو توكفيل في كتابه "الديمقراطية في أمريكا" حينما قال إن الذين يُنتجون الأشياء الضرورية للحياة يفتقدونها، في حين تكثر عند أولئك الذين لا ينتجونها ولا يعرفون أبدًا كيفية صُنعها، فما أغرب تقلُّب القيم!.

٢,٥-/السيولة باعتبارها مصطلحًا لتجسيد التقاطع المعرفي عند باومان:

استعمل باومان مصطلح السيولة كثيرًا، وقد اختاره كي يعبر به عن حالنا المعاصر، والسيولة باعتبارها مصطلحًا له تداولاته المتعدّدة؛ لكن انتقاءه من طرف باومان دليل على أنه متقاطع معرفيًا؛ فليس من السهل أخذ حالة فيزيائية للمادة وجعلها ميزة لنظام المجتمع الحالي؛ فباومان استعار المفهوم من الفيزياء[٨٢]* والاقتصاد[٨٣]* وجسّده في حال المجتمعات، وهذا دليل على أنه يفهم في تلك الميادين، أو على الأقل طرق باب التخصصات الأخرى، وهنا تكمن براعته، فهو لم يبق حبيس المفاهيم التي يوفرها علم الاجتماع فقط؛ بل بالعكس من ذلك تمكن من صقل مفاهيم جديدة تخدم علم الاجتماع، «وعليه استعمل باومان مصطلح السيولة بشكل كبير في كلّ مُؤلّفاته حتى عُرفت فيما بعد بسلسلة السيولة المدوّنة في كتب الفقه الاستراتيجي، وما جعل باومان يركّز على استعماله لهذا المُصطلح هو أخذه لتلك الحالة الفيزيائيّة للمادّة لمّا تكون صلبة وانتقالها إلى حالة أخرى تكون لزجة مائعة سائلة؛ فهو أخذ هذا الشّكل وهذه الصّورة، كي يُعبّر بشكل بالغ وكبير عن الكيفيّة التي تحوّل بها المُجتمع من حالة الصّلابة (الحداثة) إلى حالة

(٨٢)* السيولة من المنظور العلمي (الفيزياء) مأخوذة من سائل liquid أي طور المادّة الذي تكاد تنعدم فيه انضغاطيتها، وفي هذا الطّور تكون المادّة حالة مائعة، وتتخذ تحت تأثير الجاذبيّة شكل الإناء الذي يحتويها إلى منسوب مُعيّن يسمّى سطح السائل، وفي نفس المفهوم نجد (إسالة)liquéfaction ومعناها تحويل المادّة إلى الحالة السائلة، ويُطلق المصطلح عادة على التّحويل من الحالة الغازيّة إلى الحالة السائلة، وخاصة بالنّسبة للمواد التي توجد في حالتها الغازية عند درجة الحرارة والضغط العاديين، كما نجد في الفيزياء أيضا ما يُعرف بخطّ الإسالة liquidus المكونة من عنصرين الأول يُعرف بالمُنحنى الطّوري phase diagram الذي يُبيّن درجة الحرارة والثاني بالتّركيز وهو يُبيّن درجة الحرارة التي يتمّ عندها الانصهار كلّما ارتفع تركيز المُذاب في المذيب.(أحمد المنصور، معجم مصطلحات الفيزياء، ص٥٨٩)

(٨٣)* نجدها على أنّها السيولة النّسبيّة لتحويل المُستثمرين لأوراقهم الماليّة إلى نُقود، أي درجة المُرونة التي تتحوّل بها أصول مُعيّنة إلى نقود وتعني بالإنكليزيّة Liquidity، كما وردت على أنها قابليّة تحويل الأصول الماليّة إلى نُقود، وتعني بالإنكليزيّة Reversibility. (أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، ص٨٩٩).

المُيوعة (ما بعد الحداثة)»[٨٤]؛ وعلى هذا يُعتبر مصطلح السّيولة نقطة تلاقي لما أخذه باومان من العلوم الأخرى ووظفه ليوصل للقارئ أن حالة المجتمع الحالي في تردّيه كحالة المادة المائعة السائلة التي لا تعرف ثباتًا.

ولا بدّ لنا من وقفة مع مُصطلح السيولة وكيفيّة استعانته من قبله، هذا المُصطلح الذي وسم مجموعة من مؤلفاته؛ إذ يذكر في أحد مؤلّفاته قائلًا: (إن ما تتميّز به طريقة الحياة الحديثة عن أنماط الحياة السّابقة السّائدة يكمن في التّحديث الوسواسيّ القهريّ الإدمانيّ؛ فهو يكمن فِي الإذابة المُتواصلة والإحلال السّريع للبنى، والنماذج الذّائبة) فهو يجعل من السيولة بهذا المفهوم تلك المُرونة التي تقف في وجه الصّلابة في كلّ الميادين يقول أيضًا:(السيولة هي الصّلابة الوحيدة، واللايقين هو اليقين الوحيد)[٨٥]؛ فهو يعتبر السيولة نموذجًا لنمط حياتنا المعاصرة، إنها تقنية الصهر والتمييع والإذابة، وفي ظلّ السّيولة كلّ شيء ممكن أن يحدُث، لكن لا شيء يمكن أن نفعله في ثقة واطمئنان ومفهوم السيولة لا يظهر فقط في سيولة الحركة والتنقّل نتيجة التطوّرات المُتسارعة في وسائل الاتّصال والانتقال؛ بل هي تصل إلى حدّ سيولة المشاعر والعلاقات والمعاني؛ لأن المعنى قد غاب تحت نير التنقّلات والبحث واللهاث وراء كلّ جديد[٨٦]؛ فمثلما تكون السّيولة في المادّة حالة فيزيائية في الطّبيعة (كقابليّة التدفّق، السيلان، غير قابلة للانضغاط) تكون أيضًا في العلاقات الاجتماعية، وداخل التركيبة الاجتماعية؛ ذلك انطلاقًا من أننا نعيش في مُجتمع حديث سائل، وهو مجتمع تتغير فيه الظّروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح باستقرار الأفعال في عادات وأعمال منتظمة، وهكذا تتغذى سُيولة الحياة وتنمو وتترعرع على سيولة المجتمع، وتستمدّ طاقتها وحيويتها منها والعكس صحيح، والحياة السائلة تمامًا مثل المجتمع الحديث السائل، لا يمكن أن تحتفظ بشكلها ولا تظلّ على حالها وقتًا طويلًا؛ ففي هذه الحياة لا يمكن لتجارب الماضي أن تستوعب ما يطرأ على الظّروف من تغيّرات سريعة غير متوقعة إلى حدّ كبير، وربّما لا يمكن توقّعها وهذا يعني أن الرّكون إلى أحداث ماضية في استقراء المسارات المُستقبليّة صار وكأنّه مجازفات بالغة غير مسبوقة؛ بل وعلى حسابات مضللة في الغالب؛ بل أصبحت مجهولة ولا يُمكن الرّكون إلى احتمالات مساراتها المُستقبليّة ركونا تاما مُطمئنا[٨٧]؛ فما أشبه وضعنا بالتزلّج على جليد عائم، يعني أن سلامتنا في سرعتنا وخفتنا.

بعض السوائل تتدفق بشكل كبير عندما تقترب درجة حرارتها من الصفر المُطلق، وتنساب بلا توقّف على جوانب الأوعيّة الحاويّة

(٨٤) يسرى وجيه السعيد، مصطلح السيولة وارتداداته عند باومان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ١٤ديسمبر ٢٠١٦، mominoun.com.

(٨٥) بول هوبر، نحو فهم للعولمة الثّقافيّة، ترجمة: طلعت الشايب، المركز القوي للترجمة، ط١، ٢٠١١، ص٢٨.

(٨٦) ليلى الجهني، في معنى أن أكبر، دار الآداب، بيروت، ص١٧

(٨٧) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص٢٢.

لها مهملة قوى الاحتكاك والجاذبيّة، وبإمكان هذه السوائل التي توجد في درجات الحرارة البالغة الانخفاض أن تخترق الطّوب والدّوران بلا توقّف ...وفي السياق نفسه نجد السائل أو السيولة بوصفها حالة سادسة للمادّة حيث تنقضّ كل القوانين الفيزيائيّة الأكيدة للسوائل[٨٨]؛ فمثلما هو الحال للمادة هنا كان الأمر مشابهًا في طريقة العيش ضمن الحياة السائلة الجديدة للمجتمعات؛ إذ إن تجربة العيش في هذه الحياة تُلخّصها عبارة بليغة شهيرة:(الخوف دائم في كلّ مكان) وهذا الانتشار العام للخوف يرتبط بالظّلام السّائد؛ إذ يُمكنُ أن تقع أيّة واقعة ولا أحد يعلم مآل ذلك، فليس الظلام هو سبب الخطر؛ ولكنّه الموطن الطّبيعيّ للإحساس بالخوف واللايقين، فهي حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم، وأشد هاجس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غرة، ومن الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة، ومن التخلف عن ركب السائرين ومن إغفال تواريخ نهاية الصلاحية؛ فالحياة السائلة سلسلة من البدايات الجديدة التي تكون النهايات فيها سريعة مؤلمة، وهي أصعب لحظات الحياة السائلة وأوجعها، وهكذا أصبح تعلم أسبقية التخلص من الأشياء على تملكها أحد فنون هذه الحياة وإحدى المهارات اللازمة لممارستها، وبذلك تصبح ميزة أهل الحداثة السائلة أو أهل الحياة الحديثة السائلة في تعلم كيفية إنهاء الأمور واختتامها لا في كيفية الشروع والبدء فيها[٨٩]؛ فنحن نعيش في عالم حديث سائل لا يعترف إلا بيقين واحد، ألا وهو اليقين بأن الغد ليس ما يمكن أن يكون، ولا ما ينبغي أن يكون؛ بل ما يكون هو التدريب المُستمرّ على الاختفاء والذوبان والانسحاب والرّحيل[٩٠].

إن السيولة بلغت كل شيء، ولم تستثنِ أي شيء، جعلتنا غرقى جميعا إلى الأذقان؛ فالجميع يُبحر فيها ومحيطها غارق في الضّباب؛ حيث لا نرى شيئا ونعجز عن الحركة، ففي الضباب يكون المرء حُرًّا، ولكنّها حريّة في ضباب؛ فيُمكننا أن نرى على مسافة ٣٠ أو ٥٠ قدما، ويُمكننا أن نفرح بالأشجار الجميلة على طول سيرنا في الطّريق، وأن نُلاحظ المارّة في الطّريق، ونجتنب الاصطدام بالآخرين، ونتفادى الصخور الضّخمة أو حفرة أمامنا، ولكن قلّما نستطيع أن نرى أبعد من ذلك أو أن نرى السيارة التي تبعد عنا بضعة مئات من الأقدام وهي آتية بسرعة عالية في اتجاهنا، وإن من سمات العيش في الضّباب أن يقيننا يستهدف جهودنا الاحترازية، ويُركّزها على الأخطار المرئيّة والقريبة، تلك الأخطار التي يمكن توقّعها وحساب احتمالاتها، ولكن أفظع الأخطار وأبشعها هي بالتحديد تلك التي من المُحال توقّعها، إنها الأخطار غير المُتوقّعة وغير القابلة للتوقّع، وفي ظلّ هذا الوصف للحياة

(٨٨) ٤ أسامة ممدوح عبد الرزاق مصطفى شرف، السيولة الفائقة أغرب حالات المادة، مجالسنا مجالس التعليم العصري، ٢٠٢١/٤/١٧، سا: ٢٣:٥١، www.majalisna.com .

(٨٩) زيغمونت باومان، المصدر السابق، ص٢٣.

(٩٠) زيغمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧،ص٢٨.

السائلة يقول جاك أتالي: «أضحى المجتمع يُتوقّع فيه كلّ شيء إلا وسائل التوقّع، إننا جميعا نظنّ أنه يوجد جبل جليديّ عائم ينتظرنا يتربّص بنا في مكان ما في المُستقبل الضّبابيّ، وسنصطدم به وسنغرق، ونحن منغمسون في أصوات الموسيقى»[٩١].

كما أن السمة الأبرز لنظام المجتمع الحديث هي سمة التّفكّك الاجتماعي الشّديد فهو مجتمع لا يبدو عليه انعدام الشّكل أو عدم الاكتمال أو عدم الوُضوح، كما أنه لا يبدو عاجزًا عن مقاومة يد البستاني الذي يرعى بكلّ عناية النباتات الأفضل من الغداء والهواء والضوء، وهو متعدّ في نفس الوقت كي يتقولب في أيّ قالب يختاره له هذا البستانيّ[٩٢]؛ إنه مجتمع مائع سهل الانصهار لا يثبُت على حال يتركب مع كل قالب جديد، فلا وجود لصلابة تمنعه من ذلك؛ لأنه من نوع سائل يسهل عليه أخذ الشكل الجديد بكل سهولة.

وفي سياق العيش داخل المجتمع الحديث السّائل نجد ما يُسمّيه "باومان" بالجري وراء الفرديّة هذه الأخيرة التي خلّفتها الحياة السّائلة، بحيث تراجعت "الجماعة" (Community) كما أنّ نظامها المناعيّ الذي كان يحميها من المُشكلات صارت مُشكلة في حدّ ذاتها؛ فحالة الأشياء صارت حالة من صنعنا؛ ذلك لأنّ المجتمع أضحى (جماعة مُتخيّلة) بمعنى أنّ المُجتمع ظرف اجتماعي استغنى عن الخيال في خدمة الفحص الذّاتيّ، وأصبح المُجتمع نافضًا يديه من العلاقات بين الأشخاص (المجتمعيّة لا الجماعيّة) وهذا ما يُسمّيه فيما بعد"باومان" بـ"عالم التّفاعل المُباشر بين الأشخاص"، وهنا تبرز الفرديّة وتتشكّل في التّعاملات اليوميّة، وتُعزز الاختيار الحرّ الوهمي فقط، وفي هذا المجتمع يُصبح الحديث حديثًا عن مجتمع الأفراد الذي يكون فيه الأفراد أفرادًا بحكم القانون فقط، فهو مجتمع خاضع لسيرورة النّزعة الفرديّة، والذي ننتمي إليه جميعًا فهو مجتمع لم يتمكّن من الحفاظ على الفرديّة بحكم الواقع وهي المنشودة؛ بل أصبحت صعبة المنال؛ نظرًا للتغيّر السّريع للسّمات المعهودة للهويّة وعدم الاستقرار المُزمن، وللطّلب المتزايد حول الفرديّة، فكلّنا الآن نمثّل شخصيّة (أليس)[٩٣] : فالجري وراء سراب الفرديّة يستحوذ علينا، ففي الجري وراء الفرديّة لا وقت للراحة والاسترخاء.

حمل باومان على عاتقه مهمّة النداء الإنساني دون أن يذكر ذلك صراحة؛ فقد حاول تسليط الضّوء على ظاهرة المُيوعة في المجتمعات وفوائدها وسلبياتها، بعبارة أخرى يُحاول هؤلاء إيجاد حلول لمآسي المُجتمع الاستهلاكي المفروض من عدة نواحي؛ فقد جعل الفرد استهلاكيًا بطبعه لا يفكر كيف ينتج؛ بل فقط كيف يستهلك، بل وكيف

(٩١) المصدر نفسه، ص٣٥.

(٩٢) زيغمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، المصدر السابق، ص١٩٨.

(٩٣) المصدر نفسه، ص٤٨.

يستهلك أكثر، حتى صار الاستهلاك عنوانًا كبيرًا للحياة يسري في كل جوانبها، وقد كانت هذه الحياة سببًا في تكوين عقلية فردانية مما أدى بالذين يقترحون الحلول إلى اقتراحها بصيغة فردية غير أن باومان يريد تشخيص الداء؛ باعتبار أن القضية جماعية كبيرة تهم الجميع، وبالتالي فحلها لن يُقدم بطريقة فردية؛ بل لا بد من الاتحاد لمواجهة خطر السيولة الذي غرقت فيه البشرية.

فباومان حاول أن يشخص الداء الاجتماعي ويقترح له الدواء، فهو يعتبر أن المأساة مأساة اجتماعية؛ لذلك لا بد من السعي الحثيث لإيجاد الحل في أقرب وقت، خاصة أن درجة الميوعة والسيولة في مجتمعاتنا تزداد كل دقيقة بأبلغ الأوصاف، وهو حال ينبئ بخطورة بالغة؛ لأن المجتمعات تسير في درب فنائها بهذه الكيفية دون أن تعي، فباومان يحذر من الناحية الاجتماعية، والتي جمع لها من تخصصات مختلفة عن مخاطر السيولة والميوعة التي دخلتنا من كل الجوانب فعاداتنا، وتقاليدنا ضاعت، وأخلاقنا سالت، وديننا تميع بفعل المميعين، وكذلك سياستنا واقتصادنا؛ فهذه السيولة خطر محدق على حسب باومان، وهذه الأخيرة لا تخص المجتمع من جهة معينة بل تخص كل أقطاب الكرة الأرضية باعتبارهم يعيشون في قرية واحدة، فباومان أراد أن يوجه أسهم الحذر إلى جوانب هذا الخطر المحدق؛ وذلك بإعادة النظر في العديد من الأمور، وصولًا إلى الفرد العادي البسيط.

خاتمة

في صفحات هذا البحث كانت البداية مفاهيمية، وذلك قصد الوقوف على مسألة تحديد المفهوم والمصطلح بحيث إننا عدنا إلى تحديد كلمتي (inter) وكلمة (disciplinarité) وما يقابلهما في اللغة العربية، ثم حددنا المفهوم الاصطلاحي للتقاطع المعرفي على أساس أنه عملية تتضمن تقاطعا في التصورات والمفاهيم التي لها علاقة بإعارة وسائل التحليل والتفسير من التخصصات الأخرى، بين تخصصين فأكثر، ثم الانتقال بعدها إلى الشخص الفكري عند باومان بسيرة ذاتية قصيرة جدًا؛ باعتبار أن البحث يقوم عليه، وبعدها إلى وجود التقاطع المعرفي في علم الاجتماع بصورة عامة، وكيف أن هذا العلم اليوم لا يمكنه الاستغناء عن التخصصات الأخرى وحجم حاجته إليها، كما نوهنا على أهمية حضور هذا النوع من الدراسات في علم الاجتماع من خلال إبراز الأهمية التي أضحت ضرورة إبستيمولوجية مُلحة، ومن ثَمَّ الانتقال إلى التقاطع المعرفي في الشخص الفكري لباومان، وقد تناولنا عناصر تثبت ذلك؛ فمن بينها أن التاريخ عند باومان ليس مثلما يسرده الآخرون؛ بل إنه عاد للتاريخ بمنهج نقدي يبرز فيه كيف أن حادثة المحرقة ليس مثلما يصورها لنا التاريخ، وإنما ليست سوى نتيجة من

منتجات الحداثة، وبعدها تناول الجانب السياسي الذي وجدناه متداخلا مع التاريخ، وكانت القضية الراهنة عنده هو رفض ما يقوم به أصحاب المحرقة من قرارات عالمية باسم وبحجة الهولوكوست، وبين من خلالها أن السياسة هي فن الممكن المتغير، كما نجده أيضًا قد ألمح إلى المرجعية الاقتصادية وبين دورها في البناء الاجتماعي، وهنا تناول بالضبط الصراع الطبقي الموجود بين الرأسمالية والاشتراكية فيما بعد، وهذا دليل على توسعه في تحليل القضايا الاجتماعية من زاوية اقتصادية، كما أنه استعار بأعمال الفنانين كي يشخص الداء الاجتماعي، وكيف أن الفن الحالي القائم ليس سوى مجموعة من التركيبات اللامتراكبة لكنها مقبولة محمودة، وهذا لا لشيء؛ إنما فقط لأن الذوق الاجتماعي الحالي أصبح يمجد هذا النوع من الأعمال، وبالتالي فباومان وجد من الفن وسيلة للتعبير عن حالة المجتمع السائل الذي تغيرت قيمه حتى في الذوق الجمالي، وأصبحت التفاهات هي القداسة بعينها، أما المقدس فقد ولى زمانه وأصبح تقليديا يُنفر منه، ثم بعد ذلك تطرقنا إلى عنصر السيولة باعتباره تجسيدًا للتقاطع المعرفي عنده؛ فمفهوم السيولة نعرفه كيميائيا واقتصاديا، لكن باومان أخذه من هذين العلمين ليقدم لنا صورة جديدة عن تركيبة نظام المجتمع الحالي، وكيف أنه أصبح سائلًا في قيمه، وعاداته وتقاليده، واقتصاده، وثقافته، وتربيته، ودينه، وتاريخه.

إن الوباء الاجتماعي الذي يراه باومان لم يصل إليه من خلال نظرة أحادية من برج عالٍ؛ بل إنه كثّف من مجهوداته ودخل غمار علم الاقتصاد والسياسة والتاريخ والفن، ليصل في النهاية إلى صياغة مفهوم جديد في علم الاجتماع معتبرًا أن العالم برمته اليوم يعيش مرحلة ثانية بعد الحداثة، وهو ما أسماه الحداثة السائلة، فباومان من خلال اجتهاداته في الاقتصاد فهم أن الناس أصبحوا مجرد ناقلين مستهلكين، بل أكثر من ذلك تجدهم لا يفهمون إلا في الاستهلاك ونظرًا لخطورة الوضع الاستهلاكي حتى أطفالنا أصبحوا مستهلكين من الدرجة الأولى، وكذلك استطاع باومان من خلال الاقتصاد أن يفهم طبيعة النموذج الرأسمالي الحالي، ويخوض غمار البحث فيها ومن الناحية التاريخية استطاع الوصول إلى حقيقة الهولوكوست، ومن الناحية الفنية تعمد الرجوع إلى أعمال الفنانين في هذه المرحلة ليجدهم فعلًا قد تمعنوا في القضية؛ لذلك استعان بالفن بوصفه وسيلة أيضًا للتعبير عن نظريته الاجتماعية، كما لا ننسى أن باومان استعمل في كل هذا مزيجًا فلسفيًا، وذلك بعودته لمختلف النظريات الفلسفية التي يذكرها في كتاباته.

وعليه يمكن القول باختصار شديد إن

نظرية باومان في علم الاجتماع مكنته وأجبرته أن يكون متقاطعًا معرفيًا، أي أن يستعين بالتخصصات الأخرى، وهذا الذي لاحظناه، فقد أخذ من كل الميادين شيئًا ويركبه مع ميدان آخر؛ ليوصل لنا رسالة مفادها أن المجتمع الحالي مجتمع خطير سائل قريب من الانهيار، وقد وصل إلى هذا بعد الاطلاع على الاقتصاد، ووجد أن الناس اليوم يجتهدون في الاستهلاك أكثر من الإنتاج، وهذا الذي يسميه بالنزعة الاستهلاكية، وبعد اطلاعه على التاريخ، ووجد أن الناس يعتقدون أمورًا لكنها في الحقيقة كذب وبهتان، وبعد أن اطلع على الفن والفلسفة واستعان بأعمال الكثيرين بغرض توظيفهم في سبغ مفاهيم اجتماعية جديدة.

البيبليوغرافيا

١. ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار صادر للطباعة والنشر، ط١، الجزء٧.

٢. أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الإحياء، ١٩٩٨.

٣. أحمد المنصور، معجم مصطلحات الفيزياء، مجموعة النيل العربية، مصر، ٢٠٠٦.

٤. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨.

٥. أسامة ممدوح عبد الرزاق مصطفى شرف، السيولة الفائقة أغرب حالات المادة، مجالسنا مجالس التعليم العصري، ٢٠٢١/٠٤/١٧، سا: ٢٣:٥١، www.majalisna.com

٦. ألبير كامي، حالة طوارئ، ترجمة: كوثر عبد السلام البحيري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط٢، الكويت، ٢٠٠٩.

٧. أنطونيو غرامشي، شجرة القنفذ والرسائل الجديدة، ترجمة: أمارجي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنّشر، ط١، سوريا ٢٠١٦.

٨. بول هوبر، نحو فهم للعولمة الثّقافيّة، ترجمة: طلعت الشايب، المركز القوي للترجمة، ط١، ٢٠١١، ص٢٨.

٩. الجرجاني، التعريفات، القاهرة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ٢٠٠٤.

١٠. جون ليتشه، خمسون مفكرًا أساسيًا معاصرًا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة: فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٠٨.

١١. حسين سالم مرجين، العلاقات البينية بين علم الاجتماع وعلم الحاسب الآلي ''المفاهيم والمنهجية''، ٢٠١٥، كلية الآداب، جامعة طرابلس.

١٢. حنة أرندت، في الثورة، ترجمة: عطا عبد الله، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، لبنان، ٢٠٠٨.

١٣. زيغمونت باومان، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠١٦، ص٩٣.

١٤. زيغمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،٢٠١٧.

١٥. زيغمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠١٦.

١٦. زيغمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، دنيا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة.

١٧. زيغمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧.

١٨. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ط١، دار الكتاب العربي للنشروالتوزيع، القاهرة،٢٠١٥.

١٩. عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دط، دس.

٢٠. ليلى الجهني، في معنى أن أكبر، دار الآداب، بيروت.

٢١. محمد سيد بيومي، معوقات تفعيل الدراسات البينية في العلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، د س.

٢٢. يسرى وجيه السعيد، مصطلح السيولة وارتداداته عند باومان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ١٤ديسمبر ٢٠١٦، mominoun.com.

باللغة الأجنبية:

1. Béatrice fleury et jacques walter, interdisciplinarité, interdisciplinarités, question de communication, vol 18, 2010, open édition journal presse universitaire de lorraine.

2. BéchillonD, la notion de transdisciplinarité, revue de mouvement anti- utilitariste dans les sciences sociales, vol 10, **Bibliothèque du MAUSS numérique,** 1997.

3. Bertrand calenger, à la recherche de l'interdisciplinarité, de quelques collections, vol 4, 2002.

4. britannica, Zygmunt Bauman POLISH-BORN SOCIOLOGIST, Patricia Bauer, la date :25/04/2020, H :02 :00, https://www.britannica.com/biography/Zygmunt-Bauman.

5. Castel Patrick, forms et pratiques de l'interdisciplinarité: quelle place pour les sciences socials?, 11/12/2017, Centre de sociologie des organisations.

6. Dominique Wolton, Eloge de l'interdisciplinarité, les editions ovadia, France, 2009.

7. Éve anne buhlera et autres, le jeune chercheur et l'interdisciplinarité en sciences socials, edp sciences, vol14, 2006.

8. franceculture.fr, Biographie de ZygmuntBauman, franceculture, la date :25/04/2020, H : 18 :30, https://www.franceculture.fr/personne-

entre sciences de la nature et sciences sociales),2005.

17. Morin, e, l'ancienne et la nouvelle transdisciplinarité, collection points, 1 er edition, paris, 1982.

18. reverso, opcite. https://dictionnaire.reverso.net/francais-definition/disciplinarit%C3%A9.

19. Reverso, https://context.reverso.net/traduction/francais-arabe/inter, 17/03/2021, h :20 :49.

20. sensagent , http://dictionnaire-analogique.sensagent.com/MA80816/ML-fr-ar/, 19/03/2021, h :10 :30.

21. Theguardian, Passion and pessimism, Madeleine Bunting, la date : 25/04/2020, H : 18 :06, https://www.theguardian.com/books/2003/apr/05/society.

22. Theguardian, Zygmunt Bauman obituary, Mark Davis and Tom Campbell, la date : 25/04/2020, H : 18 :18, https://www.theguardian.com/education/2017/jan/15/zygmunt-bauman-obituary.

23. Theguardian, Zygmunt Bauman obituary, Mark Davis and Tom Campbell, la date : 25/04/2020, H : 18 :18, https://www.theguardian.com/education/2017/jan/15/zygmunt-bauman-obituary.

24. Yves Lenoir, L'interdisciplinarité : aperçu historique de la genèse d'un concept, Cahiers de la recherche en éducation, Volume 2, Number 2, 1995, erudit.

zygmunt-bauman.html.

9. franceculture.fr, Nous vivons dans une "société liquide", INSTITUT FRANÇAIS DE LA MODE, la date :25/04/2020, H : 18 :40,https://www.franceculture.fr/conferences/nous-vivons-dans-une-societe-liquide.

10. Glosbe, inter en arabe,https://fr.glosbe.com/fr/ar/inter, 17/03/2021, h :15 :23.

11. Glosbe, opcite, https://fr.glosbe.com/fr/ar/discipline.

12. Guy Bellemare - Daniel Tremblay, Le défi de l'interdisciplinarité : ce que les «sciences sociales appliquées» peuvent apprendre des «sciences sociales fondamentales», Collection Études théoriques, no ET0707, 2007, Bibliothèque et Archives nationales du Québec.

13. Jean-Paul Resweaber, les enjeux de l'interdisciplinarité, quistion de communication , press universitaire de lorraine, 2011.

14. LAROUSSE, LAROUSSE inter, https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/inter-/43593, 18/03/2021, h :14 :49.

15. larousse, opcite, https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais-arabe/discipline/11999.

16. Marcel jollivet, Jean Marie Legay :(nature sciences sociétés :from dossier interdisciplinarité canevas pour une réflixion sur une interdisciplinarité